الشّخصيّة وتمثّلاتها في روايات ناديا خوست

طالبة الماجستير: ريم خير الله العلي

قسم: اللّغة العربيّة– كليّة الآداب – جامعة البعث

إشراف: أ.د. جودت إبراهيم

الملخّص

يقدّم هذا البحث عرضاً لمفهوم الشّخصيّة بوصفها عنصراً أساسيّاً في بناء الرّواية وفق المفاهيم البنيويّة.

ثمّ يقدّم تحليلاً للشّخصيّات في روايات (ناديا خوست) مُستَعرِضاً الطّريقة الّتي اتّبعتها الكاتبة لبناء الشّخصيّات، ودورها، ودلالة تسمياتها، وتصنيفها.

وسنكتشف من خلال التّحليل الطّريقة الفنّيّة الّتي اتّبعتها الكاتبة لتوظيف الشّخصيّات الواقعيّة والإيجابيّة بوصفها عنصراً فنّيّاً له دوره البارز في البنية الفنّيّة الرّوائيّة.

كلمات مفتاحية:

روايات، الشّخصيّة، خوست.

The character and Its Role in Nadia's Novels.

Summary :

Firstly ,this study is chiefly concerned with displaying the concept of a character which is considered to be as a fundamental artistic element in constructing a novel according to the standards/criterions of the structure of a novel. Secondly ,it presents the analysis of the characters in Nadia's novels as well as portraying the way which the writer adopts to build up the characters , their roles , the references of their names and their classifications.

Through analysis, we can get the artistic way adopted for engaging the positive and realistic characters playing artistically a prominent role in the structure of narrating.

Key words:

Novels , character, Nadia's

التّعريف بالكاتبة ناديا خوست:

كاتبة وأديبة، وقاصّة وناقدة أدبيّة، ومناضلة تقدّميّة جريئة. ولدت في سوريّة في محافظة دمشق عام (1935م). في أسرة شركسيّة الأصل. لها الكثير من المؤلّفات والكتب والمقالات الأدبيّة تعدّ من كبار الأديبات في سوريّة والوطن العربيّ. بدأت ناديا خوست بنشر إنتاجها الأدبيّ في السّتينات من القرن الماضي. تميّزت قصصها بالتّعبير عن زخم الواقع.

حصلت على درجة الدّكتوراة في الأدب المُقارن من الاتّحاد السّوفيتي بعد حصولها على بكالوريوس الفلسفة من جامعة دمشق، وكانت أطروحتها لرسالة الدّكتوراة في الأدب المُقارن بعنوان (أدب تشيخوف وأثره على الأدب العربيّ).

انتخِبَت عضواً في المكتب التّنفيذي لاتّحاد الكتّاب العرب في دمشق عام (2000م) حتّى (2005م). وعضواً في مجلس اتّحاد العرب لثلاث دورات، وعضواً في اللّجنة السّوريّة لدعم الانتفاضة، وعضواً في المكتب التّنفيذي لخريجي الجامعات الرّوسيّة.

شاركت (خوست) في الدّفاع عن الأحياء القديمة خارج سور دمشق، وخاصّة سوق ساروجا، وحماية بعض الأبنية التّاريخيّة كمنزل الشّهيد يوسف العظمة. منحت وزارة الثّقافة السّوريّة جائزة الدّولة التّقديريّة لعام (2016م) للكاتبة ناديا بهاء الدّين خوست في مجال الآداب.

من مؤلّفاتها:

- أحبّ الشّام، مجموعة قصصيّة، دمشق، 1967م.
- في القلب شيء آخر، مجموعة قصصيّة، دمشق، 1979م.
- كتّاب ومواقف، دراسة أدبيّة، دمشق، 1983م.

– الهجرة من الجنّة، مجموعة قصصيّة، 1984م.

– حبّ في بلاد الشّام، رواية، دمشق، 1995م.

– أعاصير في بلاد الشّام، رواية، دمشق،1998م.

– شهداء وعشّاق في بلاد الشّام، رواية، 2000م.

– وداع ولقاء في بلاد الشّام، رواية، 2002م.

– دماء وأحلام في بلاد الشّام، رواية، 2005م.

مقدّمة:

يقدّم البحث دراسة نظريّة للشّخصيّة مع مقاربة نقديّة تحليليّة للشّخصيّات في روايات (حبّ في بلاد الشّام، شهداء وعشّاق في بلاد الشّام، وداع ولقاء في بلاد الشّام، دماء وأحلام في بلاد الشّام، أعاصير في بلاد الشّام) للكاتبة (ناديا خوست) والّتي تستعرض المسيرة النّضاليّة للكثير من الشّخصيّات المثقلة بالهمّ الوطني.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى دراسة الشّخصيّات في روايات الكاتبة (ناديا خوست)، بما فيها من نماذج إنسانيّة تعبّر عن الهمّين العام والخاص على حدٍّ سواء، وتُفْصِح عن أنماط حيواتها الماديّة والمعنويّة، وتمثّل نواحي المجتمع الإنسانيّ وتحوّلاته.

مشكلة البحث:

واجهت هذا البحث العديد من الصّعوبات منها: تشعّب الموضوع، وتعدّد مرجعيّاته ممّا استدعى تعدّد المراجع، وتنوّعها وقلّة الدّراسات حول أعمال الكاتبة، فحسب اطّلاعي ليس هناك غير مقالات متفرّقة.

منهج البحث:

استدعت طبيعة الرّوايات اعتماد أكثر من منهج. منها المنهج البنيويّ بوصفه منهجاً علميّاً وصفيّاً يُهمّ في تحديد البنيات، مع الاستعانة بالمنهج السّيميائي للوصول إلى الدّلالات الكامنة لأسماء الشّخصيّات.

مفهوم الشّخصيّة:

لغةً:

جاء في لسان: "الشّخص سوادُ الإنسان، وغيرُه تراه من بعيد، وكلُّ شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه، والشّخص كلُّ جسم لهُ ارتفاعٌ وظهورٌ، وجَمْعُهُ أشخاصٌ، وشخوصٌ، وشخّص يعني ارتفع والشّخوص ضد الهبوط وشخّص بصره أي رفعه فلم يَطرِف، وشخّص الشّيءَ عيّنهُ وميّزهُ ممّا سواهُ"(1).

نجد أنّ لفظ الشّخصيّة مُقتصر على الذّات الإنسانيّة وعلى الظّاهر وهو بذلك يؤكّد الظّهور الحسيّ مقترناً بمسمّى الشّخص.

اصطلاحاً:

نجد أنّ كلمة شخصيّة مشتقّة من الأصل اللاتيني (persona) "وهي تعني القناع الّذي كان يلبسه الممثّل حين يقوم بتمثيل دور أو الظّهور بمظهر معيّن أمام النّاس وبهذا أصبحت الكلمة تدلّ على المظهر الّذي يظهر به الشّخص"(2).

تعدّدت تعريفات الشّخصيّة؛ لأهمّيتها الكبيرة في الدّراسات، والتّطوّرات الّتي تشهدها السّاحة الإبداعيّة الفنّيّة والنّقديّة. تعرف من النّاحية الاصطلاحيّة بأنّها المحرّك الرّئيس الّذي يدفع بتطوّر الأحداث داخل العمل الأدبيّ وبأنّها روح الرّواية وهي "كلّ مشارك في الرّواية سلباً وإيجاباً، أمّا من لا يُشارك في الحدث فلا ينتمي إلى الشّخصيّات بل يعدُّ جزءاً من الوصف"(3) ممّا يؤكّد فعاليّة الشّخصيّة، وأهمّيتها في النصّ الرّوائي، ودورها الفعّال في إبراز الحدث والقضيّة.

(1) ابن منظور، 1994م، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مُكرم، لسان العرب، دار الكتب العلميّة، بيروت – لبنان، ط5، مادّة (شخص).

(2) رياض، سعد، 2005م، الشّخصيّة أنواعها أمراضها وفنّ التّعامل معها، مؤسّسة اقرأ، القاهرة – مصر، ط1، ص11.

(3) زكريّا، عبد المنعم، 2008م، البنى السّرديّة في الرّواية، النّاشر عن بحوث إنسانيّة واجتماعيّة، ط 1، ص62.

ويعرّفها رولان بارت بقوله: "هي نتاج عمل تأليفي وكان يقصد أنّ هويّتها موزّعة في النّصّ عبر الأوصاف والخصائص الّتي تستند إلى اسم (علم) يتكرّر ظهوره في الحكي"(1).

يجعل رولان بارت الشّخصيّة من خلال قوله عنصراً أساسيّاً ومحوريّاً في البناء الرّوائي، ويتمّ ذلك من خلال ما يمنحه لها النّصّ من أهميّة.

"وترى يُمنى العيد أنّ الشّخصيّة باختلافها الّتي تولّد الأحداث وهذه الأحداث تنتج من خلال العلاقات بين الشّخصيّات فالفعل هو ما يمارسه أشخاص بإقامة علاقات بينهم ينسجونها وتنمو بهم، فتتشابك وتنعقد وفق منطق خاص"(2).

وعلى الرّغم من اختلاف التّعريفات تبقى الشّخصيّة العمود الفقري الّذي يقوم عليه العمل الرّوائي وروحه، فبدونه تتوقّف الحركة والسرد.

تصنيف الشّخصيّة الرّوائيّة:

اختلف النّقّاد في تقسيم الشّخصيّات وتصنيفها إلى فئات مختلفة، ومن هذه التّصنيفات:

– تصنيف فيليب هامون:

آ– فئة الشّخصيّات المرجعيّة:

هي شخصيّات تُحيل إلى عوالم خارجيّة مألوفة وتتضمّن الشّخصيّات التّاريخيّة والأسطوريّة والاجتماعيّة، والمجازيّة. "شخصيّات تاريخيّة (نابليون الثّالث في ليو عند ألكسندر دوما)، شخصيّات أسطوريّة (فينوس، زوس)، شخصيّات مجازيّة (الحبّ، الكراهية)، شخصيّات اجتماعيّة (العامل، الفارس، المحتال). تُحيل هذه الشّخصيّات على

(1) نقلاً عن الحمداني، حميد،2000م، البنية السّرديّة من منظور النقد العربيّ، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء – المغرب، (دط)، ص51.

(2) العيد، يمنى،1990م، تقنيّات السّرد الرّوائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط1، ص42.

معنى ثابت حدّدته ثقافة ما (...) إنّ قراءتها مرتبطة بدرجة استيعاب القارئ لهذه الثّقافات (...) وعادةً ما تُشارك هذه الشّخصيّات في التّعيين المباشر للبطل"(1).

ب- فئة الشّخصيّات الإرشاديّة (الواصلة):

وهي حلقة وصل بين الكاتب والمتلقّي، عن طريقها يستطيع الكاتب تمرير رسالته، وهي شخصيّات ناطقة باسمه، جوقة التّراجيديا القديمة، المحدّثون السّقراطيّون، شخصيّات عابرة، رواة ومن شابههم، واطسون بجانب شارلوك هولمز... إلخ، ويكون أحياناً من الصّعب الإمساك بهذه الشّخصيّات(2). وهذه الشّخصيّات تكون علامة لحضور المؤلّف أو القارئ، وما ينوب عنها داخل النّصّ الرّوائي.

ج- فئة الشّخصيّة الاستذكاريّة: وتُسمّى بالشّخصيّات المتكرّرة، تحديد هذه الشّخصيّات يحتاج لإدراك وفهم مرجعيّات العمل الأدبيّ بصفة عامّة وهي "شخصيّات للتّبشير فهي تقوم بنشر أو تأويل الأمارات... إلخ، إنّ الحلم التّحذيري ومشهد الاعتراف والتّمنّي والتّكهّن والذكرى والاسترجاع والاستشهاد بالأسلاف والصّمود المشروع، وتحديد برنامج كلّ هذه العناصر تعدّ أفضل الصّفات وأفضل الصّور الدّالة على هذا النّوع من الشّخصيّات، ومن خلالها يقوم العمل بالإحالة على نفسه"(3).

(1) هامون، فيليب، 2008م، سيمولوجيا الشّخصيّات الرّوائيّة، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار للنّشر، اللاذقيّة – سوريّة، ط1، ص35-36.
(2) المصدر نفسه، ص14.
(3) المصدر نفسه، ص14.

أنواع الشّخصيّة الرّوائيّة:

1- الشّخصيّة الرّئيسة:

وهي المركز الّذي تدور حوله الأحداث وهي: "الّتي تقود الفعل وتدفعه إلى الأمام وليس من الضّروري أن تكون الشّخصيّة الرئيس بطل العمل دائماً، ولكنّها هي الشّخصيّة المحوريّة، وقد يكون هناك منافس أو خصم لهذه الشّخصيّة"(1) فهي توجّه الحدث.

وغالباً ما تكون أدوارها مقتبسة من الواقع "وهي الّتي تدور حولها الأحداث أو بها الأحداث (...) فلا تطغى أيّ شخصيّة عليها، وإنّما تهدف جميعاً لإبراز سماتها ومن ثمّة إبراز الفكرة التي يريد الكاتب إظهارها"(2).

2- الشّخصيّة الثّانويّة:

تحمل أدوراً أقلّ فعاليّة، وهي المساعد للشّخصيّة الرّئيس "وهي الّتي تضيء الجوانب الخفيّة للشّخصيّة الرّئيسيّة. وتكون إمّا عوامل كشف عن الشّخصيّة المركزيّة وتعديل لسلوكها، وإمّا تابعة لها، تدور في فلكها وتنطق باسمها فوق أنّها تُلقي الضّوء عليها وتكشف عن أبعادها"(3). أبعاد الشخصية (المادّي الفيزيولوجي، الاجتماعي).

ويتمثّل دور الشّخصيّة في إبراز الشّخصيّة الرّئيس ومساعدتها، وقد أكّد عبد الملك مرتاض استحالة فصل الشّخصيّات الرّئيسيّة عن الثّانويّة في قوله: "لا يُمكن أن تكون الشّخصيّة المركزيّة في العمل الرّوائي إلا بفضل الشّخصيّات الّتي ما كان لها أن تكون هي أيضاً لولا الشّخصيّات عديمة الاعتبار فكما أنّ الفقراء يصنعون مجد الأغنياء، فكأنّ الأمر كذلك هنا"(4).

3- الشّخصيّة الهامشيّة:

(1) زغرب، صبيحة عودة، جماليّات السّرد في الخطاب الرّوائي، ص131.
(2) أبو شريفة، عبد القادر،2008م، مدخل إلى تحليل النّصّ الأدبيّ، دار الفكر العربيّ، ط4، ص135.
(3) زغرب، صبيحة عودة، جماليّات السّرد في الخطاب الرّوائي، ص132.
(4) مرتاض، عبد الملك، في نظريّة الرّواية (بحث في تقنيّات السّرد)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (دط)، ص133.

هي شخصيّات غير فعّالة سواء في العمل الفنّيّ أم في المجتمع، تأتي لسدّ فراغ ما داخل النّصّ، وهي قليلة الظّهور سريعة التّلاشي، شبيهة بالسّراب، فلا يكاد يظهر حتّى يتلاشى. "الشّخصيّة الهامشيّة هي كائن ليس فعّالاً في المواقف والأحداث والمرويّات"(1).

أبعاد الشّخصيّة الرّوائيّة:

1- البعد الجسمي (الفيزيولوجي):

وهو البعد الخارجي ويدرس الملامح الخارجيّة للشّخصيّة "وهو مجموعة من الصّفات والسّمات الخارجيّة الجسمانيّة الّتي تتّصف بها الشّخصيّة سواء كانت هذه الأوصاف بطريقة مباشرة من طرف الكاتب (الرّاوي) أم إحدى الشّخصيّات، أم من طرف الشّخصيّة ذاتها عندما تصف نفسها، أو بطريقة غير مباشرة ضمنيّة مُستنبطة من سلوكها أو تصرفاتها"(2). بمعنى أنّ البعد الجسمي قائم على ما تبدو عليه الشّخصيّة من مظاهر خارجيّة.

2- البعد الاجتماعيّ (السوسيولوجي):

يبرز البعد الاجتماعيّ في كلّ ما يُحيط بالشّخصيّة ويؤثر في أفعالها أو سلوكيّاتها ومن خلاله نتمكّن من معرفة كلّ ما يتعلّق بهذه الشّخصيّة من مستوى تعليمي، المرجعيّات الدّينيّة والفكريّة، الماديّة، الطبقة الاجتماعيّة... ويشتمل أيضاً على "الظّروف الاجتماعيّة وعلاقة الشّخصيّة بالآخرين، بإمكاننا أن نعرف من خلاله كلّ ما يتعلّق بحياة الشّخصيّة كالمستوى التّعليمي، وأحوالها الماديّة وعلاقتها بكلّ ما حولها"(3).

3- البعد النّفسي (السيكولوجي):

(1) مرتاض، عبد الملك، في نظريّة الرّواية (بحث في تقنيّات السّرد)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (دط)، ص135.
(2) المصدر نفسه، ص15.
(3) هلال، محمّد غنيمي، 19882م، النّقد الأدبيّ الحديث، دار العودة، لبنان، ط1، ص641.

يهتمّ علم النّفس بدراسة الشّخصيّة ويُعدُّها "من أصعب معاني علم النّفس تعقيداً أو تركيباً، لأنّها تشمل الصّفات الجسمانيّة والوجدانيّة والخلقيّة في حالة تفاعلهما مع بعضهما البعض لشخصٍ معيّنٍ، يعيش في بيئة اجتماعيّة معيّنة"(1). ويُكمل البعد النّفسي كلاً من البعدين الاجتماعي والجسمي.

يمكن القول: إنّ الأبعاد متكاملة فيما بينها، ونقص عنصر ينتج عنه خلل في بناء الشّخصيّة لذلك هي أساس بناء الشّخصيّة.

تحليل:

- الشّخصيّات ذات المرجعيّة في الرّوايات:

تدلّ الشّخصيّة المرجعيّة على معنى مستقرّ وثابت في ثقافة ما. وأهمّيتها مرتبطة بفاعليّة القراءة ومشاركة القارئ في تلك الثّقافة.

1- شخصيّات ذات مرجعيّة دينيّة:

- النّبيّ الكريم ﷺ:

وظّفت الكاتبة الحديث الشريف في رواية (حبّ بلاد الشّام): "أمّا الآن فهو لا يستطيع أن يوقف سير الزّمن، ولكنّه سيظلّ يكشفه! وهذا الحزن شخصي لا علاقة له بقراره "لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في يساري..."(2) لأنّ شكري العسلي بثباته على موقفه في محاربة اليهود والدّونمة، وكشف مخططاتهم، شابه ثبات النّبيّ ﷺ في محاربة الفكر، ونشر الدّعوة.

- السّيّد المسيح عليه السلام:

(1) الميلادي، عبد المنعم، 2006م، الشّخصيّة وسماته، مؤسّسة شباب الجامعة، مصر، ص20.
(2) خوست، ناديا، 1995م، حبّ في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص378.

استدعت الكاتبة شخصيّة (السّيّد المسيح ﷺ) وهي تسرد معاناة (نجيب نصّار)(1) وأمثاله من السّياسيين أثناء جهادهم الفكري منبّهة إلى المنطلق الفكري والدّيني الّذي يدفعه إلى تحمّل تلك الآلام "مسكين هذا المسيح! وإلى متى يجب أن يوجد مسيح يحمل الصّليب ويفتدي الغافلين"(2).

صُلب السّيّد المسيح وعُذّب لردّه عن دعوته؛ ولكنّه ثبت بالرّغم من العذاب والألم الّذي عاناه، و نجيب نصّار حاولوا أن يوسّخوا سمعته. وعندما عجزوا عن عزله عن النّاس أغلقوا جريدته، على الرّغم من ذلك ثبت على مواقفه النّضاليّة ولم يتخلّ عن قضيّته.

- الحسن والحُسين (رضي الله عنهما):

استحضرت الكاتبة قصّة الحسن والحُسين على لسان الرّاوي في رواية (دماء وأحلام في بلاد الشّام) في أثناء تكليف (فوزي لمديحة)(3) بانتقاء الطّلاب المناسبين لتمثيل البلاد في مهرجان موسكو.

يقول الرّاوي: "لم تفكّر مديحة في السّلطة الّتي تكسر حامليها وضحاياهم أو تُنقِذهم. فأسطورة الحسن والحُسين تُبهِرُها، ورجاء حسن مثَلٌ قريب. كجميلة بوحيرد..."(4).

"كان الحسن والحُسين رضي الله عنها ضحيّة السّلطة ومسؤوليّة الدّفاع عن الحقّ.

حقن الحسن دماء المسلمين بالاتّفاق والصّلح المشروط، ومات الحُسين وهو يحارب من نكثَ العهود والمواثيق ولم تكن حربه خروجاً على طاعة الحاكم"(1). أرادت الكاتبة أن

(1) نجيب نصّار: شخصيّة ثانويّة في رواية (حب في بلاد الشّام). هو أنموذج للنضال الفكري، والكلمة الحرة الصّادقة. أسكته اليهود بإغلاق جريدته، وتلويث سمعته باتّهامه بالعمالة.

(2) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص599.

(3) شخصيتين ثانويتين في رواية (دماء واحلام في بلاد الشّام) برزا كأنموذجين للشخصيّات الشّابة الّتي انعكست اضطرابات البلاد السياسيّة والاجتماعية على حياتها ومستقبلها. جمعهما الحبّ، وفرقتهما الوحدة بين سوريا ومصر، فاعتُقل فوزي، وهربت مديحة من الاعتقال إلى لبنان ومنها إلى ألمانيا. يخرج فوزي من المعتقل بعد ثلاث سنوات، وتعود مديحة من روسيا وقد أنهت دراستها. ترفض الارتباط به لأنّه لم يستطع التحرّر من الولاء للعشيرة.

(4) خوست، ناديا، 2005م، دماء وأحلام في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص256.

تؤكّد أنّ المسؤوليّة المُلقاة على عاتق كلّ فرد مهما كانت بسيطة فهي قوّة تقرّر خطراً. وأنّ من لا يُحاسبه ضميره في أداء واجباته سيكون خطراً وعائقاً لتقدّم المجتمع. ليست مهمّة انتقاء الطّلاب بالمهمّة الصّعبة، ولكنّها سلطة ومسؤوليّة؛ لأنّ هؤلاء الطّلاب سيُمثّلون البلاد أمام البلدان الأخرى، لذا يتوجّب انتقاؤهم بدقّة وضمير. يظهر بوضوح حرص الكاتبة على توظيف الشّخصيّات الدّينيّة وإنْ دلّ هذا على شيء فهو يدلّ على سعة اطّلاع الكاتبة على التّراث الدّيني، وحِرصها أنْ تستمدّ الأجيال قوّتها وثباتها وعزيمتها لمحاربة الخطر الصّهيوني من الرّموز الدّينيّة، لأنّهم القدوة، وقادة الأمم إلى الحضارة والرقيّ وإحقاق الحقّ. ومنهم نأخذ العِبرة والعظة بانتصار الحقّ وأهله على الظّلم مهما تمادى في طغيانه.

2- شخصيّات ذات مرجعيّة تاريخيّة:

وظّفت الكاتبة شخصيّات ذات مرجعيّة تاريخيّة في رواياتها، وسنذكر نماذج من هذه الشّخصيّات:

- شخصيّة طارق بن زياد:

استحضرت الكاتبة شخصيّة (طارق بن زياد) خلال حديثها عن إدراك (شكري العسلي) لجوهر الصّراع، وأنّ العرب من دون سند عالميّ. بينما عدوّهم ذو نفوذ في بلاد الغرب والّتي يتوهّم العرب أنّهم سندٌ لهم في بلاد الشّام: "من هناك يأتي الصّهيونيّون بالمشاريع، ومن هناك يرصدون الرّجل المريض ليقتسموه! من هناك يجب ألا يتوقّع العرب مُساعدة! ذلك هو الحصار! ونحن مثل طارق بن زياد، لكنّنا غيره... وفي غير زمان"(2). شبّهت الكاتبة حصار الصّهاينة والغرب لبلاد الشّام بحصار العدوّ لطارق بن زياد. أحرقَ طارق

(1) ابن كثير القرشيّ الدمشقي، إسماعيل بن عمر، 2009م، البداية والنّهاية، بيت الأفكار الدّوليّة، ص221.
(2) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص372.

بن زياد السّفن ليُحرِقَ كلّ أملٍ لجنوده بالفرار، فلا مهرب لهم ولا نجاة سوى بالقتال والدّفاع عن النّفس. يغرق العرب بأوهامهم أنّهم الأقوى، وأنّ الغرب سندٌ لهم؛ لطيبة قلوبهم وتخاذلهم. واستدركت الكاتبة بـ(لكن) لتقول: إنّ العرب بحاجة لمن يحرق أوهامهم؛ ليستيقظوا من غفلتهم ويعتمدوا المواجهة سبيلاً للحفاظ على الأرض والكرامة العربيّة من التّآمر الصهيوني والغربيّ. ولكننا بحاجةٍ إلى قائدٍ حكيم وشجاع كطارق بن زياد، وبحاجة إلى زمنٍ كزمانه يُعيد للتّاريخ العربيّ أمجاده.

- شخصيّة تيمور لنك(1):

استدعت الكاتبة شخصيّة (تيمور لنك) في أثناء حديث (يوسف) مع نفسه (مونولوج) مسترجعاً في ذاكرته تعاقُب الغزاة عليها، وصمودها وفناء الغزاة. يقول الرّاوي في رواية (حبّ في بلاد الشّام): "دمشق تردّ له الرّوح! وقال: هي النّبيذ المعتّق! قِدَمُها يُرطِّبُ قلبه ويُهوِّن الهمّ. يتذكّر كأهل بلده أنّ تيمورلنك دخلها باكراً وأحرقها وقتل أهلها، ثمّ عاشت مرّة أخرى، ومات تيمور لنك..."(2).

وظّفت الكاتبة شخصيّة تيمورلنك لتؤكّد أنّ دمشق كُلّما زادت قدماً زاد زائرها نشوةً. وكلّما تعاقب عليها الغزاة، ازدادت صموداً وصبراً وتألّقاً، ستُفني أعداءها المتآمرين عليها، وتُبعث وتحيا من تحت الرّماد.

3- شخصيّات ذات مرجعيّة أسطوريّة:

(1) تيمور لنك قائد مغولي من القرن الرّابع عشر. ومؤسّس الإمبراطوريّة التّيموريّة (1370 – 1405) م في وسط آسيا، وأوّل الحكّام في العائلة التّيموريّة الحاكمة الّتي استمرّت حتّى عام (1506م). حاول استرجاع الإمبراطوريّة المغوليّة، فكانت أعنف هجماته ضد المغول.

(2) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص432، يُنظر: عبد الكريم سليمان، أحمد، 1405هـ- 1985م، تيمور لنك ودولة المماليك الجراكسة، دار النّهضة العربيّة للطّبع والنّشر والتّوزيع، ط1.

– شهرزاد(1):

استحضرت الكاتبة شخصيّة (شهرزاد) في رواية (شهداء وعشّاق) عندما طلب (حمدان)(2) من (سعاد) ابنة فاطمة أن تتقمّص شخصيّة شهرزاد وتسرد له الحكايات. يقول الرّاوي: "... يجب أن تصدّقي الآن أنّك شهرزاد! وأنا مَنْ؟ عبد، أم أمير! فلأكن شهريار! اضطجع وطلب من سعاد أن تحكي له حكاية... تبيّنت وهي تحكي شابّة أخرى في نفسها. قال لها منتصراً: أرأيت؟ في كلّ امرأة شهرزاد ولكنّها لا تدري بذلك! ركع أمامها لأنّها شهرزاد. مع أنّه شهريار"(3).

أرادت الكاتبة أن تقول باستحضارها لشخصيّة (شهرزاد) أنّ بداخل كلّ امرأة شهرزاد، تستطيع بذكائها وثقتها بنفسها أن تُذلّل الصعاب، وتُؤدِّب الرّجل، وتهذّب طباعه. وأنّ داخل كلّ امرأة شهرزاد قادرة على خدمة وطنها، ومواجهة الغزاة بجرأتها وشجاعتها وثقافتها وحكمتها.

برزت شهرزاد الكامنة في سعاد بزواجها من المحامي (عبد الرّحيم)، فكانت لها بصحبته بصمتها النّضاليّة وثورتها على الظّلم والعدوان. دافعت شهرزاد ألف ليلة وليلة عن نساء المملكة، بينما دافعت سعاد عن الوطن، وواجهت الغزاة بشجاعة تخطّت شجاعة وحكمة الرّجال.

(1) شهرزاد: شخصيّة رئيسيّة أنثويّة، وراوية في إطار سرديّة لمجموعة الحكايا العربيّة المعروفة بـ (ألف ليلة وليلة) وهي مجموعة من القصص والأساطير المستمدّة من الثّقافات المتعدّدة، جُمعت بالعربيّة على مرّ القرون، شهرزاد هي ابنة الوزير وزوجة الملك شهريار. وهي فارسيّة. يُنظر: جوهر، حسن، محمد أحمد برّاق، أمين أحمد السّطّار، ألف ليلة وليلة، دار المعارف، ط2، ص35.

(2) شاب فلسطينيّ. غني وحيد ومدلّل، تزوّج فاطمة بنة سعاد، وهامّ بها. عاشا معاً سنتين، وينتهي زواجهما بالانفصال؛ لأنهّا لم تتحمّل حبّه المتأرجح بين الصّحو والجنون. تكتشف سعاد بعد سنوات من طلاقهما أنّ سبب اضطرابه وجنونه قلقه على البلاد الّتي تُباع وتُسلب من أهلها بالمكر والخداع، وعجزه عن حماية الوطن.

(3) خوست، ناديا،2000م، شهداء وعشاق في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص173.

– السّندباد(1)**:**

استحضرت الكاتبة شخصيّة السّندباد وعروس البحر في رواية (حبّ في بلاد الشّام) في أثناء سفر (سعيد)(2) على متن الباخرة برفقة أحمد باشا، ورؤيته للبحر أكثر أماناً وسعةً من البرّ.

يقول الرّاوي: "أيمكن أن يكون البحر السّاكن حول سعيد مملكة مستقلّة؟ أيكون البرّ لصراع النّاس، والبحر منطقة آمنة، للسّفر، للأحلام، وانتظار عروس البحر، للفرجة على الحيتان والأسماك، للبحث عن الجزر الضّائعة واللّقاء بالجزر الوحيد للؤلؤ، والمرجان ليعود السّندباد حُرّاً إلى جبل النّحاس ويعبره"(3).

اعتاد سعيد السّفر ليكنز العلم والمعرفة، واكتشاف المدن، شعر بصعوبة السّفر والتّنقّل بعد تقطيع أوصال بلاد الشّام، وانعكس الضّياع والتّشتت الّذي عانته البلاد على شخصيّته. ليصبح البحر له منطقة آمنة للسّفر والحلم بعودة بلاد الشّام موحّدة، جميلة كعروس البحر وليعود العربيّ حُرّاً في السّفر والتّنقّل كالسّندباد.

ترمز الشّخصيّة الأسطوريّة إلى ضياع الشعب. يقف الإنسان حائراً أمام بعض الصّعوبات الّتي تعترض مجرى حياته، ويصل إلى درجة أنّه يتمنّى حدوث الخوارق والمعجزات. الشّعب بمختلف فئاته يعبّر بالالتجاء إلى شخصيّات أسطوريّة عن ضياعه وتشتّته، وأحلامه.

(1) السندباد: شخصيّة أسطوريّة من شخصيّات ألف ليلة وليلة، وهو بحّار من بغداد عاش في فترة الخلافة العبّاسيّة، ويُقال: إنّ السّندباد الحقيقي تاجر بغدادي مقيم في عمان، وتعدّ حكاية السّندباد البحري من أشهر حكايات ألف ليلة وليلة، يُنظر: جوهر، حسن، محمّد أحمد برّاق، أحمد السّطّار، ألف ليلة وليلة، دار المعارف، ط2، ص210.

(2) شخصيّة شابّة مَرِحة مُثَقّفة. مثّقف يهوى الشّعر والغناء والسّفر واكتشاف المدن. أهمل دراسته ليدافع عن الوطن، فكان مُثْقَلاً بالهمّ الوطني، وبحلم الدّولة العربيّة، ووحدة بلاد الشام. رافقنا في روايتي (حب في بلاد الشّام، وشهداء وعشّاق) تنتهي حياته باستشهاده وعرض جثّته في ساحة المرجة.

(3) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص359.

4- شخصيّات ذات مرجعيّة ثقافيّة:

يُمثّل هذه الفئة فلاسفة وأدباء وشعراء ورد ذكرهم في الرّوايات على لسان الشّخصيّات الّتي تقرأ لهم وتتبنّى أفكارهم ورؤاهم وأيديولوجياتهم على اختلافها. العبرة في استدعاء هذه الشخصيّات ليست بذواتها بل بالأفكار الّتي تمثّلها ومدى التأثير الّذي تحدثه في متلقّيها.

استحضرت الكاتبة قصيدة (بهيرة) للشّاعر (عبد المعين الملّوحي(1)) في رواية (دماء وأحلام).

انتشرت هذه القصيدة بين طلاب الجامعة لأنّها تحثُّ على الجرأة والتّمرّد، وتبثّ روح التّفاؤل وحبّ الحياة، وأنّه لا يوجد في هذه الحياة باب مغلق عصيّ على الإرادة القويّة: "هكذا انتشرت (بهيرة) عبد المعين الملّوحي، في مدارس بلاد الشّام! وصلت من دمشق إلى بيروت وعمان وإربد وحفظها قيس، نسخها الطّلاب بأيديهم! نسخت ليلى مقطع القصيدة مبهورة. بجرأة الشّاعر:

فَرِغَ الإله وجنده من قتل زوجتي الصّغيرة.

وتجمّعوا يتضاحكون وقد توارت في حفيرة"(2).

كانت الغاية من هذا التّوظيف بيان مدى تأثير الشّعر في روح الشّباب وبثّ الأمل والتّحدي فيهم.

استحضرت الكاتبة أبياتاً من قصيدة البياتي(3)، كقول الرّاوي في رواية (دماء وأحلام):

" عيني في عينيك يا وطن العقيدة والكفاح

(1) عبد المعين الملّوحي: شاعر عربيّ سوريّ من مواليد محافظة حمص. كتب في الصّحافة وذيّل توقيعه باسم شيوعي مزمن حتّى عُرِف بهذا الاسم. له العديد من المؤلّفات ولعلّ أبرزها قصيدة (قدر وجريمة) والّتي طبعت ثمّ سُحِبت من التّداول، علماً أنّ القصيدة كانت قصيدة رثاء زوجته بهيرة الّتي توفّيت بالسّرطان. وصف أحدهم القصيدة بأنّها رثائيّة بامتياز. وفلسفيّة بامتياز. فهو أوّل من تجرّأ على الإلحاد، وليس الإلحاد فحسب بل الهجوم ليفتح باباً في وجه الأدب العربيّ قلائل من تجرّأوا ودخلوا فيه.

(2) خوست، ناديا، دماء وأحلام في بلاد الشّام، ص82-83، مقتبس من ديوان الشّاعر عبد المعين الملّوحي، يُنظر: مهنا، ناظم، عبد المعين الملّوحي، أعلام ومبدعون، وزارة الثّقافة، الهيئة السّوريّة للكتاب، دمشق، ص25.

(3) عبد الوهاب البياتي: شاعر وأديب عراقي (1926 – 1999) م. يُعدُّ واحداً من أربعة أسهموا في تأسيس مدرسة الشّعر العربيّ الجديد في العراق (روّاد الشّعر الحرّ).

والنّار في قلبي وفي يدي السّلاح

أحمي حدودك من صغار النّحل

يا وطن الأقاح"(1).

أنشدت مديحة هذه الأبيات كأنّها من انتصاراتها.

أوردت الكاتبة أسماء كتّاب عرب وغربيين كان لهم بصمة في السّاحة الأدبيّة. قرأت مديحة لمجموعة من الكتّاب الغرب لتُثقّف نفسها. يقول الرّاوي في رواية (دماء وأحلام): "وهي أيضاً يجب أن تُثقّف نفسها: على طرف طاولتها كتب: الحرس الفتي لفاديف، شارع السّردين المعلّب لشتاينبك، فارس الأمل لجورج أمادو، والشيخ والبحر لهيمنغواي... في الثّقافة المصريّة لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، كم يجب أن تقرأ لتعرف الدّنيا، وكم هذه الكتب ممتعة"(2).

استحضرت الكاتبة في مجال الطّرب: "الحبّ كأغاني أسمهان وعبد الوهاب ولورد كاش! نور القلب وضوء العين"(3).

تحضر الشّخصيّات الثّقافيّة والأدبيّة في روايات ناديا خوست بكثافة، ولا مجال لحصرها جميعاً.

ونلاحظ تركيز الكاتبة على أفكار الشّخصيّات ورؤاها أكثر من الشّخصيّات ذاتها، وردت بعض الشّخصيّات بذكر مؤلّفاتها أو ذكر اسمها فقط.

أرادت الكاتبة من خلال إيرادها لهذه الشّخصيّات الثّقافيّة والأدبيّة المقارنة بين الأدب والشّعر في الماضي والحاضر، والإشارة إلى مدى انحطاط الثّقافة المعاصرة وسطحيّتها،

(1) خوست، ناديا، دماء وأحلام في بلاد الشّام، ص238، يُنظر: ديوان عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشّعريّة، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ج1، 1995م.

(2) خوست، ناديا، دماء وأحلام في بلاد الشّام، ص238.

(3) خوست، ناديا، 1998م، أعاصير في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص24.

وعرفنا مدى ثقافة الكاتبة، واطلاعها على الآداب العربيّة والغربيّة ولا سيّما الأدب الرّوسي.

مفهوم الرّمز:

نرى الأفكار تظهر مع الرّموز، بحيث لا يُمكن فكّ ارتباطها عن تلك الرّموز، كما أنّ الرّمز قائم بطبيعته على التّكثيف والإيماء والابتعاد عن المباشرة واختزال اللّفظ، بحيث يجعل القارئ يتدخّل في كشف دلالاته، "فالأدب الرّمزي يفرض على القارئ قراءةً واعيةً، ويدعو إلى كشفِ المعاني الخفيّة"(1).

وقد اختلفت وجهات النّظر حول مفهوم الرّمز، فمنهم من يرى الرّمز "وجهاً مقعنّعاً من وجوه التّعبير بالصّورة"(2).

وقد عبّر رينيه (ويلك) و(أوستن وارين) عنه "كموضوعٍ يُشير إلى موضوعٍ آخر، لكن فيه ما يؤهّله لأنّه يتطلّب الانتباه أيضاً لذاته كشيءٍ معروض"(3).

وعدّه آخر بأنّه: "الدّلالة على ما وراء المعنى الظّاهري، مع اعتبار أنّ المعنى الظّاهري مقصود أيضاً"(4).

بينما جعله الدّكتور (محمّد غنيمي هلال): "الإيحاء أي التّعبير غير المباشر عن النّواحي النّفسيّة المستترة، الّتي لا تقوى على أدائها اللّغة في دلالتها الوضعيّة"(5).

"يطلق الرّمز للنّفس العنان حتّى تنطوي على ذاتها لسبر غورها البعيد فيُحرّرها بعض الشيء من العامل المنطقي المتجمّد إلى قوّة أخرى لا تُدرك قراءة اللاوعي إلا بها ألا وهي الحدس"(1).

(1) بير، هنري، 1981م، الأدب الرّمزي، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، ص10.
(2) إسماعيل، عزّ الدّين، الشّعر العربيّ المعاصر، دار الثّقافة، بيروت، (د.ت)، ص195.
(3) ويلك، رينيه، وأوستن وارين، 1972م، نظريّة الأدب، تر: محي الدّين صبحي، مراجعة: حسام الخطيب، دمشق، ص243.
(4) عبّاس، إحسان، 1996م، فنّ الشّعر، دار صادر بيروت، ص200.
(5) هلال، محمّد غنيمي، 1987م، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ص398.

"لأنّ وظيفة الرّمز الأساسيّة أن يحتفظ بانتباهنا منصبّاً عليه في الوقت الّذي يشغل به حساسيّتنا بتغطية الفكرة وحجبها لمنعها من بلوغ منطقة الوعي الواضح"(2).

"ومن هذه الرّموز الرّمز الشّخصي الّذي يقتلعه الأديب من حائطه الأول ليفرغه جزئيّاً أو كليّاً من شحنته الأولى أو ميراثه الأصلي عن الدّلالة ثمّ يشحنه بشحنة أو مدلول ذاتي مستمدّ من التّجربة الخاصة"(3).

ومن أمثلة الشّخصيّات الرّمزيّة:

- شخصيّة الحيّة:

ترمز الحيّة في رواية (حبّ في بلاد الشّام) لغدر اليهود. وقول شفيقة أنّها لا تؤذي من لا يؤذيها تأكيد لطيبة قلب العرب واستغلال اليهود لهذه الطّيبة. يقول الرّاوي: "لا تخاف فاطمة من الضّبع، رُغم ما يقال أنّه يضبع فريسته ويجرّها وراءه إلى حيث يأكلها. لكنّها تخاف من الحيّة. لماذا؟ لأنّها ملساء، تتسلّل في صمت مُستعدّة للغدر"(4).

عانت فاطمة وعائلتها من غدر اليهود. مات زوجها يوسف حسرةً وكمداً لأنّ أبيلا اليهودي سلبه أرضه بالمكر والخداع. غدر به بعد أن دخل بيته واستضافه يوسف بكرم وشهامة العربيّ المعهودة. بسبب هذه الطّيبة والكرم خسرت عائلته كلّ ما تملك بعد وفاته حتّى البيت. لذلك تذكّرت فاطمة غدر اليهود عند ذكر أولاد أخيها للحيّة. فهم يدخلون فلسطين بحجّة المشاريع والمساعدة، ويغتصبون الأراضي بالمكر والخداع. يدخلون بنوايا حسنة عكس ما يضمرون. كجلد الحيّة الأملس ولكنّه يحتوي السّمّ.

(1) يُنظر: كرم غطّاس، أنطوان، 1949م، الرّمزيّة والأدب العربيّ الحديث، دار الكشّاف للنّشر والطّباعة، بيروت، ص12.

(2) يُنظر: هويدي، صالح، 1989م، التّرميز في الفنّ القصصي العراقي الحديث، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، ط1، بغداد، ص19.

(3) يُنظر: أرسلان، إسماعيل، الرّمزيّة في الأدب في الفنّ، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، (د.ت)، ص57.

(4) خوست ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص723.

– شخصيّة الغزال:

فرح قيس بالغزال الصغير الّذي أهداه له عمّه. سُرِق الغزال وحزِن قيس كثيراً. شاركته صديقته (غزالة) حزنه بقولها في رواية (أعاصير في بلاد الشّام): "وهناك عانقته لا تحزن يا قيس! كنت أعرف أنّهم لن يتركوه! عرفت؟ كيف؟ ردّت: لأنّه حلو! هل كانت تُدرك أنّ الجميل، وأنّ مصير النّقي مرّ؟ كيف خمّنت ما لا يستطيع ولا تستطيع بعد التّعبير عنه؟"(1).

رمزت الكاتبة بالغزال إلى فلسطين. لا يخفى على أحد خصوبة تربتها وجمالها بزيتونها وعُذوبة مائها، وآثارها. عدا عن طيبة أهلها وشهامتهم ونقاء سريرتهم. استغلّ اليهود طيبة قلبهم وسرقوا الأرض والبيوت والزّيتون وحتّى الماء. حال فلسطين كحال الغزال جمالها وطيبة أهلها جلبا لها المصير المرّ.

– شخصيّة الضّبع والأرنب:

يرمز الضّبع في رواية (وداع ولقاء) إلى اليهود. وصفه السّارد بالجبن والغدر، وأنّه لجبنه يعجز عن مواجهة ضحيّته لذلك يُخدّرها ليتمكّن من افتراسها "همست: الضّبع جبان، وغدّار! يُقال إنّه يخدّر ضحيّته كي لا يواجهها!"(2) وصفه السّارد بأنّه بشع ويخاف الضّوء. فهو يفترس ضحاياه ليلاً. كقول معتصم لأخته ليلى يصف لها الضّبع: "فرسم على الأرض بقضيب من الخشب حيواناً ظهره مائل. قالت: بشع! طبعاً، بشع، يا ليلى! ويخاف من الضّوء!"(3).

(1) خوست، ناديا، أعاصير في بلاد الشّام، ص30.
(2) خوست، ناديا،2002م، وداع ولقاء في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص521.
(3) خوست، ناديا،2002م، وداع ولقاء في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص521.

لا يخفى على أحد أنّ اليهود احتلّوا فلسطين بالمكر والغدر، وأنّهم عجزوا عن مواجهة أهلها والعرب وجهاً لوجه لذلك خدّروا العرب بادعاءاتهم أنّهم جاؤوا فلسطين لغاية الإصلاح وإنشاء المشاريع والنّهضة العلميّة والعمرانيّة. فكانت هذه الادعاءات وسيلتهم لسلب الأراضي من أهلها بالمكر والخداع. ويرمز الأرنب إلى فلسطين الّتي عجزت عن مقاومة اليهود، وليلى هي رمز للعرب فكلّما ثارَ الفلسطينيّون للدّفاع عن وطنهم دعَاهم العرب للاستكانة والهدوء أملاً بالمُعاهدات والهدنات الخادعة والّتي كانت تخدم مصالح اليهود والغرب.

"استيقظت ليلى عندما تحرّك الأرنب تحت الغطاء. ألزمته بأن يسكن عندما تبيّنت أمّها في الغرفة"(1).

- **شخصيّة (القرش، الشّاب، أمّ الشّاب، الصّيّادين والنّساء):**

يُعدُّ القرش رمزاً لليهود. وأعطته الكاتبة سمات الغدر والوحشيّة كاليهود. يظهر ويختفي عندما تشعر ضحيّته بالأمان وأنّ الخطر زال يظهر فجأة ليفترس ويغدر. وكلّما قاومته الضحيّة زادته رائحة دمّها وحشيّة. يقول الرّواية في رواية (حبّ في بلاد الشّام): "دخل سمك القرش إلى بيوت حيفا، أسنانه كالمنشار متوحّش يزيده دمّ الضّحيّة وحشيّة! قوّته القاهرة تغلب الصّيّادين! أخطر من الأخطبوط! يفترس ضحيّته قبل أن تعي ما يحدث!"(2).

هذا ما حدث مع يوسف الّذي استقبل أبيلا اليهودي في بيته وقبل أن يعي ما يحدث وما يُحاك ضدّه من مؤامرات سُلِبَتْ أرضه وأملاكه.

الشّاب الّذي افترسه القرش رمز للمدن الفلسطينيّة الّتي يحتلّها اليهود بالغدر الواحدة تلو الأخرى مُستغلّاً عدم تضامنها. الصّيّادون والنّساء رمزان للبلدان العربيّة المستكينة والغافلة

(1) نفسه وعينها.
(2) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص480.

عن خطر اليهود، وتفكّكها وعدم توحّدها لمواجهة الخطر الّذي يتهدّد بلاد الشّام عامّةً وليس فلسطين وحدها. ونتبيّن ذلك من خلال نصيحة النّدّابة (زينب) للصّيّادين بقولها في رواية (حبّ في بلاد الشّام): "قالت لهم زينب كي تواجهوه يجب أن تقتَربوا منه يجب أن تتخلّصوا من خوفكم منه! أنتم جماعة وهو وحيد! قال الصّيّادون لزينب: صرت تنطقين بالحكمة!"(1).

رمزت الكاتبة من خلال بعض الصّيّادين إلى العملاء والمنافقين الّذين استغلّوا الأحداث لمصالحهم الشّخصيّة، كقول الرّاوي: "في ذلك الأسبوع ظهر في المصائد سمك غريب الأشكال والألوان بعضه أسود مرقّش. وبعضه أحمر ذو أجنحة كأجنحة الطّيور. عرضه الصّيّادون على الشّاطئ والفرجة بمتليك! فقالت أمّ الشّاب: مصيبتي أنتهم بالخير، يا زينب!"(2).

تُشير الكاتبة هنا إلى فورة بعض المدن العلميّة، ورغبتها بالنّهضة والمشاريع الّتي شغلهم بها اليهود عن خطرهم ومخطّطاتهم لاحتلال فلسطين. انتصر الصّيّادون على سمكة القرش وتمكّنوا من قتلها عندما تخلّصوا من خوفهم، ووحّدوا قواهم كما نصحتهم زينب القرعاء. كحال بلاد الشّام الّتي يتوجّب عليها أن تتّحد لمواجهة الخطر اليهودي والتّآمر الغربيّ "وجرّ الرّجال القرش. كان عظيماً، جرّوه وبرّروا بعظمته للمرأة وللمدينة عجزهم عن الإمساك به بسهولة. ورأت المرأة أنّ ابنها لم ينكسر أمام خصم سهل!"(3).

– شخصيّة ليلى:

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص480.
(2) المصدر نفسه، ص481.
(3) نفسه وعينها.

يلتقي في هذا السّياق، دور المرأة؛ الأمومي والعشقي ويتضافران في ذات أنثويّة. لتجمع الذّات المحبوبة بين صور الوطن وذكريّات الأمومة، المحمّلة بشحنة الحنين. حيث مزجت بين المكان (الوطن– فلسطين) والشّخصيّة (ليلى) ليحدث التّماهي الذّوبان بينهما. تظهر فلسطين مرتدية جسد الضّحيّة، فكان الوطن المرأة، والوطن الجسد، والوطن الحبّ. كانت فلسطين لأبنائها كالأمّ الّتي حُرموا حضنها وحنانها. وحالُ (قيس) كغيره من أبناء فلسطين الّذين تشرّدوا في أنحاء البلاد. حامَ قيس حولها بعد النّزوح من قُرب ومن بُعد متنقّلاً بين مدن بلاد الشّام وأوروبّا لاجئاً من اليأس والشّوق: "لا! يُستعاد حبّ الأمّ الّذي حُرِم منه. هناك تحت الخروبة الوارفة في البيدر تحت الزّيتونة، تحت السّقف العقد. كان يُريد أن تحتضنه أمّه، وتُشبعه من حبّها! وهناك لم يحدث ذلك!"(1).

عندما يفقد الإنسان شيئاً يبحث عن البديل. وبفقد قيس لحضن الأمّ (الوطن) وجد البديل في الحبيبة. فكانت (ليلى) رمزاً للحبية فلسطين: "تبحث يا قيس عن الحلم؟ ضاعت البلاد فاخترعت امرأة في سعتها؟ عصر قلبه وخاطب حبيبة بعيدة. لمس الأشواق الّتي تفور في قلب لا يرويه حبّ موجود إلى حبّ غير موجود، حكى عن عذاب لا يدري أهو عذاب الحبّ أم عذاب الحلم الّي يهرب كأنّه توق إلى ما لا يوجد إلا في الغيب الموعود!"(2).

أحبّته ليلى وبادلته الشّوق والحنين. ولكنّها كانت تصدّ عنه لأنّه لا يؤتمن، فكانت كوطنه فلسطين كالحلم والسّراب. لينتقم قيس من غربته وشوقه لحضن الأمّ، وصدود المحبوبة، بجلافته مع النّساء اللّواتي عاشرهنّ. رمزت النّساء للبلدان الّتي استضافت قيساً؛ ولكنّها لم ترِوِ عطشه وشوقه وحنينه لحضن الأمّ (الوطن): "فهل أبعد عنه في جلافة النّساء اللّواتي أحببنه، لأنّه كان ينتقم من أمّه الّتي لم تفهم شوقه إلى حنانها"(3).

(1) خوست، ناديا، أعاصير في بلاد الشّام، ص40.
(2) خوست، ناديا، دماء وأحلام في بلاد الشّام، ص509.
(3) خوست، ناديا، أعاصير في بلاد الشّام، ص40.

اختارت الكاتبة الجنس ومعاشرة النّساء عند استحضارها البديل عن المعشوقة لأنّ كلاهما يُمثّل الإنجاب والخصوبة والأمومة. فكانت خصوبة فلسطين سبباً لطمع اليهود بها. اشتياق قيس لفلسطين جعله يرى جسد ليلى وطناً، وهنا أخذ المكان دلالته الرّمزيّة والتأثيرية من خلال الشّخصيّة.

إنّ إحالة الشّخصيّة إلى الوطن لا ينتهي عند هذا الحدّ، بل يمتدّ إلى درجة القداسة: "حفظ ثيابها وفهم أنّها تحبّ اللّون الأزرق والأخضر والأبيض. فسأل صاحبه: أيمكن أن تكون عاشت في القدس"(1).

نجد أنّ تخيّل (قيس) لفلسطين من خلال المحبوبة (ليلى) راجع إلى الرّغبة النّفسيّة المُلحّة لأنّ (قيس) في غربة حقيقيّة لنزوحه عن أرض الوطن وتشرّده. وهو في غربة رمزيّة من خلال تشرّده العاطفيّ حاول التّعويض عن غربة الوطن بإقامة وطن صغير وبناء أسرة لتزداد غربته: "أوهمه الشّباب بأنّه يستطيع أن يؤسّس أسرة ووطناً في مجتمع غريب! فإذا به يكتشف بعد عمر أنّه بين مجموعة يصلّي كهولها للأمس وشبابها للخلاص من الاشتراكيّة"(2).

(1) المصدر نفسه، ص203.
(2) المصدر نفسه، ص11.

تصنيف الشّخصيّات في روايات ناديا خوست:

سيتمّ التّصنيف حسب صفة الشّخصيّة، ثمّ إبراز دلالاتها الفنّيّة وأفعالها وأقوالها الدّالّة على ذلك.

أولاً- شخصيّة الرّجل:

- شخصيّة المُناضل والقيادي:

ظهرت شخصيّة المناضل السّياسي في روايات (ناديا خوست) من خلال تسليط الضّوء على مجمل أفعال هذه الشّخصيّات. لا سيّما أنّ زمن الأحداث يتوافق وزمن الأحداث القياديّة نحو الحريّة ومقاومة الاحتلال.

تمّت الإشارة إلى (السّلطان عبد الحميد) الّذي حكم بالعدل بين العرب والأتراك في رواية (حبّ في بلاد الشّام). فَهِمَ التّوازن، وأبقى الدّولة سليمة حتّى آخر برهة من حكمه وسُلطته. بأمرِهِ تحوّل الخيالُ مُمكناً، كبناء قصر يلديز بأمرٍ منه، وموافقته على مدّ خطّ القطار. رفض بيع فلسطين لليهود. وردّ على هرتزل بقوله: "هذه أرض الأمّة ولا يملك حتّى السّلطان نفسه أن يبيعها لأحد"(1).

أُسقطَ السّلطان من قِبَل (الماسونيين والدّونمة)(2) بمساعدة الفاسدين. انتهى زمنه ونسيَ النّاس حكمته وأنّه رفض بيع أرض فلسطين. وتذكّروا استبداده فقط. جُمِّدت صلاحياته وأُهين، اتُّهِمَ بالجنون واللّهو مع النّساء وسرقة أموال الدّولة. وبلغت الإهانة ذروتها بأن

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص302.

(2) الماسونيّة أو البنّاؤون الأحرار: منظمة عالميّة يتشارك أفرادها عقائد وأفكار واحدة فيما يخصّ الأخلاق وتفسير الكون والحياة والإيمان بالخالق. تتصف هذه المنظمة بالسّرّيّة والغموض الشّديدين خاصّة في شعائرها. يرى الكثيرون أنّها تسعى للسّيطرة على العالم والتّحكم فيه وتوحيدهم ضمن أفكارها وأهدافها، وتتّهم بأنّها من (محاربي الفكر الدّيني) وناشري الفكر العلماني، ويؤكّد الكثيرون في الشّرق الأوسط أنّها تابعة لتنظيمات صهيونيّة استناداً إلى الكثير من العقائد والأفكار المشابهة لها.

الدّونمة: حركة دينيّة ذات أصول يهوديّة. اتّخذت شخصيتين مزدوجتين إسلاميّة ظاهريّة، ويهوديّة باطنيّة. أثّرت هذه الجماعة في الفكر التّركي المسلم. مع توجّهها إلى تقليد الغرب. واتّخذوا شعار الماسونيّة: الحريّة، الإخاء، المساواة شعاراً لهم. تغلغلت هذه الطّائفة داخل أنظمة الدّولة في تركيّا بهدف السّيطرة عليها سياسيّاً واقتصاديّاً ولتحقيق مبتغاها.

يُبلّغ السّلطان قرار خلعه عن الخلافة يهوديّ: "قال السّلطان غاضباً: ما شُغل هذا اليهودي في مقام الخلافة؟! وارتبك قره صو، لكنّه نقل لمُخبري الصُّحف غير ذلك"(1).

حكم السُّلطان بالعدل بين العرب والأتراك، وفهم توازن القوى، وحرص على حماية الأرض العربية. لكنّه عجز عن حماية الدّولة بمفرده لأنّها كانت محكومة بوضعها بين دول أقوى منها، وفساد الضُّباط والأمراء والباشوات، والموظفين.

برزت شخصيّة (جمال عبد النّاصر) في رواية (دماء وأحلام في بلاد الشّام) كأنموذج للقياديّ سيّء الإرادة. كان رجلاً وطنيّاً ذا صلاحيّات لا يقيّدها الدّستور. لكنّه شُغِلَ بعد الوحدة مع سورية عن الخطر الصّهيوني بضرب القوى الوطنيّة. فركّز جهوده على الصّراع الدّاخلي. وردّ على لسان عمر في رواية (دماء وأحلام) مبيّناً خطورة ما فعله عبد النّاصر: "قال لهم سيُنفّذ باسم الحريّة ما لم تنجح فيه المؤامرات على سورية! عبد النّاصر ليس رجلاً وطنيّاً فقط، بل رئيس ذو صلاحيّات لا يُقيّدها الدّستور. كما يُقيّد الدّستور في سورية الرّئيس"(2).

كان (جمال عبد النّاصر) واضحاً في مواقفه مع إسرائيل، ولكنّه لم يعِ أنّ الصّراعات الدّاخليّة والعربيّة تؤثر في المعركة المفروضة مع الصّهيونيّة. وعندما وعى جوهر الصّراع الصّهيوني تمّت تصفيته.

اتّصف (شكري العسلي) بالصّدق والتّواضع والدّماثة، ممّا قرّبه من النّاس ومن فئة الشّباب خاصّة. لم يكن كبيراً في السّنّ. درس في باريس تقلّد العديد من المناصب الإراديّة. لاحقَ الفساد في الدّولة، أسّس حزب الأحرار المعتدلين وكان من أهدافه: "حفظ المملكة

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص552.
(2) خوست، ناديا، دماء وأحلام في بلاد الشّام، ص271.

العثمانيّة... والمدارس العلميّة... ألسُن العناصر الأدبيّة وآثارها.. تأمين العدل وتحويل الأعشار لراحة المزارع.. الأمّة اليوم مُخالفة للاتّحاديين لسوء تصرّفهم بإدارة المملكة.."(1). أدرك العسلي جوهر الصّراع، وأنّ الصّهيونيّة مسنودة ومدعومة عالميّاً ممّن ظنّ العرب أنّهم سندهم. حاربَ في كلّ الاتّجاهات، وسعى لكسب الزّمن، ولكنّه بدا كمن يصرخ في فلاة.

واجهه الصّهاينة والاتّحاديون بلؤمٍ ومكر. اتّهمَ بالتّطرّف والبُخل. لكنّ (العسلي) ثبت على مواقفه في كشف المخطّطات والمؤامرات. فكان بثباته أشبه بثبات الأنبياء على نشر رسائلهم السّماويّة: "أمّا الآن فهو لا يستطيع أن يوقف سير الزّمن. لكنّه سيظلّ يكشفه! هذا الحزن الشّخصي لا علاقة له بقراره "لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في يساري.." (2). الشخصيّات السّابقة (السّلطان، جمال عبد النّاصر، شكري العسلي) شخصّيات واقعيّة. كان لها أثر في تطوّر الأحداث، وكشفت الكاتبة من خلالها المسكوت عنه.

عانى الشّاب الفلسطيني من التّشرّد في أنحاء البلاد. حاربَ للعودة من دون جدوى، (كقيس) المولود في قرية (صفّوريّة) الفلسطينيّة، الّتي أبادها اليهود. كان محور الأحداث في رواية (أعاصير في بلاد الشّام)، درسَ الفلسفة، وكتب الشّعر. وعند اندلاع الحرب تمَّ تهجيره من قريته كحال غيره من الفلسطينيين "عاد قيس إلى صفّوريّة متسلّلاً في عتمة اللّيل ليملأ صدره بهوائِها للمرّة الأخيرة: كتب قيس في سجل حياته هذه أوّل مرّة رجعتُ فيها إلى فلسطين"(3).

مشى (قيس) في رجوعه الأخير على بساط الأحزاب، اتّهم بالإلحاد، سُجِنَ مرّات عديدة، وبدلّ المنفى بالمنفى، تنقّل بين المنظّمات ودخلَ حياض خلافاتها، وتنظيرات قادتها

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص326.
(2) المصدر نفسه، ص378.
(3) خوست، ناديا، أعاصير في بلاد الشّام، ص115.

وحروبها الصّغيرة. امتلكَ حدس الأنبياء وبصيرة المنجّمين، وقدرةً على قراءة الزّمن. احتضنته أغلب الدّول العربيّة والغربيّة، ولكنّها لم تروِ عطشه وشوقه لحضن الوطن الأمّ (فلسطين): "فظلّ عطشه إلى الأمّ قويّاً، قاهراً، مع أنّه رفض بكبرياء أن يتصوّر أنّه كان يشتهي في المرأة، الأمّ!"(1).

حاول التّعويض عن حضن الأمّ، بحضن المحبوبة (ليلى) ولم تكن هذه المعشوقة إلّا رمزاً لفلسطين الّتي حامَ حولها متنقّلاً بين مدن بلاد الشّام وأوروبّا لاجئاً من اليأس والشّوق. وصورتها في ذاكرته وقلبه لتحميه وتمنحه القوّة والأمل بالعودة: "ربّما كانت ليلى زمناً، سنوات مجيدة وجميلة في بلاده، الجزء الّذي يعتزّ به من عمره! لذلك يجب أن يلقاها ذات يوم! لا بُدَّ أن يلقاها ذات يوم"(2).

برز قيس كأنموذج للشاب الفلسطيني الّذي تنقّل بين مدن العالم لاجِئاً من اليأس والشوق، وهو يحمل معه ذكريات الطفولة. يعود بعد سنوات من الهجرة ويعيش في بلدة قريبة من قريته.

– المعتقل:

ولد المحامي (عبد الرّحيم) في صفد، امتلك منزلاً يشبه السّرايا. كانت لديه أمّ شبه عاجزة، تزوّج (سعاد) ابنة فاطمة، درس الحقوق في استانبول، وامتازَ بطيب المعْشَر والهدوء والحكمة، والفطنة في السّياسة. وصفه الرّاوي في رواية (وداع ولقاء في بلاد الشّام) بقوله: "عبد الرّحيم طيّب المعشر سهل في المعاشرة وفي السّياسة طويل البال، هادئ""(3).

كان مثقلاً بالهمّ الوطنيّ، وأحلام الثّورة العربيّة، وهو من الأشخاص الّذين فاوضوا زعماء اليهود الّذين ابتُلي بهم العرب. أقام في المُعتقل أكثر من بيته، فغدا المعتقل جزءاً من

(1) خوست، ناديا، أعاصير في بلاد الشّام، ص35.
(2) المصدرنفسه، ص37.
(3) خوست، ناديا، وداع ولقاء في بلاد الشّام، ص63.

عمله. عانى في المعتقل الخوف والقلق مُترقّباً موته في أي لحظة بين رصاص الإنكليز وألغام الثّوّار. وهو الّذي عُرِف بهدوئهِ. ولكنّه لم يستطع الحفاظ على هدوئه ومعطيات الواقع الفلسطيني تؤشّر لانتصار الغزاة، وخسارة العرب لفلسطين. عدا عن الإرهاب الّذي يمارسه الإنكليز في المعتقل، بابتكارهم أساليب في التّعذيب لكسر روح المقاومة السّياسيّة: "في الأسابيع الأخيرة من اعتقاله رُمِيَ بين السّياسيين فلّاحون عذّبهم الإنكليز، قدّر المعتقلون أنّ الإنكليز قصدوا بهم إرهاب السّياسيين. حدثَ عكس ما تمنّى الإنكليز. أضربنا عن الطّعام"(1).

استمرّ عبد الرّحيم في نضاله ومُرافعاته في المعتقل، كردّه على الضّابط الإنكليزي الّذي سدّد البنادق على المعتقلين لقتلهم ثاراً لمن قتله الثّوّار منهم. ردّ على الضّابط كمحامٍ في قاعة المحكمة ليقول لهم: إنّ منحهم فلسطين للغرباء، وسلخها عن أهلها وتاريخها الّذي دفع الثّوّار لزرع الألغام! لأنّهم أصحاب حقٍّ. لجأ عبد الرّحيم إلى العراق كغيره من السّياسيين، فشعر أنّه في غربة ومُعتقل أقسى من المُعتقل في فلسطين: "فالمُعتقل والبيت مكانان في الوطن. فلماذا تفرض سعاد الغربة عليه؟"(2). عبد الرحيم أنموذج للمناضل السياسيّ الفلسطيني، جاهد سياسيّا للدفاع عن تراب الوطن وقدسيّته على حساب عائلته. وتنتهي مسيرته النّضالية بالهجرة والغربة.

عرفنا الفروق بين مُعتقل وآخر عبر الأزمنة من خلال شخصيّة (عمر) الّذي اعتُقل مرّتين. درس عمر الطّبّ في دمشق، هو من الحسكة (مدينة الطّبقة شمال سوريّة). انخرط فيس أثناء دراسته الطّبّ بالسّياسة كما يُسمّيها زملاؤه، وأسماها هو عملاً وطنيّاً،

(1) خوست، ناديا، وداع ولقاء في بلاد الشّام، ص441.
(2) المصدر نفسه، ص485.

بقي حرّاً دون ولاءٍ لأيّ حزب: "لن ينتسب إلى أيّ حزب فيُقيّد نفسه بنظامه وأوامره ويُحاسب على كلمة زائدة وكلمة ناقصة. لكنّه لا يوافق على إلغاء الأحزاب"(1).

قرّر ألّا يرتبط بفتاة قبل التّخرج واستقرار البلاد. نضجت شخصيّة (عمر) في السّجن. اعتُقل مرّتين، كانت المرّة الأولى في زمن (الشّيشكلي). رأى وزملاؤه إفساد الضّباط بالنّساء وإشغالهم عن قضيّتهم المحوريّة، لم يتمالكوا أنفسهم، فصرخوا: "صرخ عمر مع زملائه الطّلّاب: تسقط الدّكتاتورية، يسقط الإرهاب وجدَ نفسهُ معتقلاً مع مجموعة منهم"(2).

اكتشف عمر في المُعتقل كيف يُهان الإنسان وتُداس كرامته ويُشتَم بألفاظٍ مهينة. ومن الدّروس الّتي تعلّمها أنّه حتّى في السّجن لا يُمكن للفرد أن يناضل إذا لم يتّحد مع المجموعة ويلتزم ببرنامجها.

علّمه السّجن الإحساس بالفقراء الّذين لا سند لهم، وأنّ المُعتقلَ يُعامل كبضاعة. صُلِبَ وضُرِبَ في سجن تدمر. ظنّ أنّ كرامته بصلابته وعدم صراخه من الألم، وتحّديه للجلّادين، ليكتشف العكس: "بل يجب أن تصرخ كيلا تزيد من حقدهم عليك. لكنّه ظلّ دَهِشاً من اندفاع الجلّادين الّذين ضربوه: كأنّ بيني وبينه أحقاد، كأنّي أكلتُ مالَ أبيه!"(3).

اعتُقلَ (عمر) مرّة ثانية في زمن (عبد النّاصر) في أثناء الوحدة بين سوريّة ومصر. وتبيّن الفروق بين سجون الشّيشكلي وسجون عبد النّاصر. وهَبه الاعتقال في زمن الشّيشكلي سُمعة الوطنيّ الجريء.

واستُقبل عند خروجه كبطلٍ شجاع ولم يطل اعتقاله في زمن الشّيشكلي بينما في زمن عبد النّاصر مَن اعتُقِل فهو خائن ويجوز قتله، ولا يعرف المُعتقل متى يخرج، ولا يجرؤ أحد

(1) خوست، ناديا، وداع ولقاء في بلاد الشّام، ص97.
(2) المصدر نفسه، ص98.
(3) خوست، ناديا، دماء وأحلام في بلاد الشّام، ص98.

على الوساطة له أو السّؤال عنه. ويُعذّب بأبشع وأقسى أنواع التّعذيب: "كرّروا ما يعرفه، الحرق بالسّيجارات، التّعليق من الذّراعين، الفلقة حتّى تتورّم القدمان. ثمّ جرّوه على الأرض في الممرات حتّى الزنزانة، وغطّوه بالشّتائم"(1).

استعان عمر بطيف محبوبته لمقاومة الوحدة والغربة الّتي عاشها في المُعتقل.

عرفنا من خلال شخصيّة عمر الفروق بين المعتقلات ومعاناة الشباب العربي، وانعكاس اضطرابات البلاد السياسية والاجتماعيّة على حياته ومستقبله.

– العميل:

يعدُّ خطر العميل والخائِن أعظم من خطر المحتلّ؛ لأنّه الأداة الّتي يعتمدها المحتلّ لتحقيق مبتغاه. يخون العميل أهله ويبيعهم مقابل بعض المال، أو للحصول على وظيفة (كعبد الرّحمن باشا اليوسف) في رواية (حبّ في بلاد الشّام) انشغل بغناه وأُبّهته وأملاكه. يدلُّ كلُّ ما في بيته من أثاث على ذوقهِ وولائهِ للغرب. تملّق اليوسف لصاحب السّلطة، قال عنه خالد آغا: "كلّ من يتزوّج أمّه فهو عمّه" خيره للغريب وليس لأهل بلده، كحجبه المال عن البعثات العلميّة، واستقباله أعضاء وفد سالونيك ضيوفاً في قصره في سوق ساروجا. خان السّلطان وانقلبَ عليه. وتعدّى ذلك لخيانة بلده مع أجنبيّ، اجتمع برجال الأحياء وعرض عليهم الذّهب ليسمحوا بدخول الفرنسيين دون مقاومة وأقسم عليهم ألّا يبوحوا بالسِّرّ وبرّر خيانته بقوله: "لنَكُن واقعيين، فنُفَكِّر في الضّحايا الّتي سنخسرها إذا قاومنا الجيش الفرنساوي! ستقصف الطّائرات بيوتنا وتحرق بساتيننا. بالحُسنى نصل إلى ما لا توصّلنا إليه بالقوّة"(2).

استغلّ الشّيخ (أسعد شقير) الإسلام كغطاء لخيانته وعمالته. كان مقرّباً من (جمال باشا). تولّى منصب مفتي الجيش الرّابع. امتازَ بغناه وهيبته واعتداده بنفوذه، واستغلّ منصبه لإذلال النّاس وإلحاق الأذى بهم وبالرّموز الوطنيّة.

(1) خوست، ناديا، دماء وأحلام في بلاد الشّام، ص306.
(2) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص320.

اكتشف المحامي عبد الرّحيم الشّاهد على خيانة الشّيخ (أسعد شقير) بعد هبّة العراق. عندما عارض قرارات المؤتمر الإسلامي الّتي أكّدت حقوق العرب والمسلمين في المسجد الأقصى وحائط البراق: "فماذا فعل أسعد الشّقيري وفخري النّشاشيبي؟ دَعَيا إلى مؤتمر الأمّة الإسلاميّة في كانون الأوّل. واهتمّا بمعارضة المجلس الإسلاميّ لأنّ رئيسه الحاج أمين، وحاولا أن يَقْنُصَا بعض الوفود إلى مؤتمرهما! فهل هذا عمل وطنيّ؟ ومَن أنْفَقَ على مؤتمرهما؟ أصحاب النّشاشيبي الصّهيونيّ منهم ليفي مدير بنك أنكلو فلسطين! هذا هو إسلام أسعد شقير!"(1).

شوّه سمعة الإسلام والمسلمين وكانت نهايته عند مقتل ابنه الطّبيب (أنور شقير) الّذي قتله الإنكليز مات الشّيخ أسعد حزناً وكمداً عليه.

شارك العملاء باحتلال البلاد بخيانتهم وطمعهم بالمناصب والأموال. فاستغلّ بعضهم الدّين كغطاء لخيانته (الشيخ أسعد) واستغلّ بعضهم منصبه لخدمة المستعمر (عبد الرّحمن باشا اليوسف).

– الفلّاح:

ولد (يوسف) في دمشق في سوق ساروجا. تعلّم في المدرسة الرّشديّة والإعداديّة. تولّت أخته نفيسة الّتي تصغره بسنتين إدارة شؤون حياته. عشِق الأرض والعمل بها. كان رائعاً في الزّراعة وتخطيط المشاريع. لم تستهوه تجارة اللؤلؤ كجدّه ووالده: "كان يختلف عن أبيه وجدِّه. ولم يكن من الجيل الّذي يستهين بالأرض مفتوناً بالسّهر في بيروت! يحبُّ الفرس، يألف الأمكنة وكم كانت الأرض خيّرة"(2).

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص597.
(2) المصدر نفسه، ص12.

عشق (يوسف) الأرض، اعتنى بالبستان وزرعه بيديه وسَقاه من عرق جبينه. فكانت ذرّات التّراب أغلى من الذّهب. نستشفّ أهميّة الأرض بالنّسبة له، وقيمة ترابها من خلال حواره مع ابنته منوّر: "سألته منوّر: آتيك بطرّاحة من بيت البساتين؟ فأجابها في رفْق: لا أجلس على ذهب! وملأ كفّه بالتّراب: هذا هو الذّهب يا منوّر، منه الخير، الأشجار والورود! ... ومنه سِوارك قرطاكِ الّتي وجدناها أثناء الفلاحة"(1).

لم يستغلّ الفلّاحين الّذين عملوا معه في البستان. كان رحيماً بهم عاملهم بودٍّ واحترام. ساعدَ الفقراء والمحتاجين، والأرامل واليتامى.

لعبَ القدر الّذي عصف ببلاده بمصير أسرته. وسلبه ما جناه في حياته، سلبه أرضه الّتي استعارها منه (أبيلا) اليهوديّ الإنكليزيّ بحجّة التّنزّه، فاستخدمها كمحطّة للهجرة الصّهيونيّة.

وعندما طلب منه أن يردّها له راوغ بقوله: "هذه الهجرة تساعدكم على استثمار الأراضي وتُدْخِل إلى البلاد أموالاً وخبرة ستنهض بها. ستزدهر فلسطين الّتي تسعكم وتسعهم. يُساء السّلوك أحياناً، وذلك طبيعيّ؛ لأنّ الأمر جديد عليكم وعليهم"(2).

سُلبَتْ أرضه وبيته بالمكر والخداع، بالاتّفاق مع البنك الصّهيونيّ مُستغلّين طيبة قلب (يوسف) وشهامته لأنّه كَفِلَ شابّاً لا يعرفه. وعندما اكتشف المؤامرة مات حزناً وقهراً. كانت شهامته ولينه سبباً لخسارته أرضه وتشرُّد أسرته.

أخذ (نوري) مكان والده في العمل، وكان السّند والعون له. أحبَّ الأرض والعمل بها كوالده. وغدا العمل بها من أولويّات حياته. عرفَ الفقراء المتعفّفين عن السّؤال. والفقراء الّذين دفعهم الفقر للتّشليح، أو العيش في الكهوف كالحيوانات. رسّخت جولاته مع والده إيمانه بأنّ: "من يحمي الأرض يحمي الفلّاحين، يبقى السُّمسم والثّمار والخضار

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص597.
(2) المصدر نفسه، ص608.

والحبوب، الخرفان والوزّ والدّجاج، وهل تظنّ يا نوري أنّ هذا أقلّ من متابعة الحرب في حوران أو البلقان أو اليمن أو طرابلس! الأرض الآن هي البلد!"(1).

شعر نوري بعد وفاة والده أنّه كبر فجأة. وأصبح كبير العائلة، أبّ لإخوته ويُساق للخدمة العسكريّة ليُقتل بالطّيران الإنكليزي ويُدفَن في العراق.

أضاءَت شخصيتي (يوسف) و(نوري) جانباً مهمّاً من حياة الفلاّح، وأنّه بعنايته بالأرض يعتني بحياة كثير من الأُسَرْ الفقيرة. وأنّ عمله في الأرض لا يقلّ أهميّة عمّن يُجاهد في ساحات المعارك.

– شخصيّة الآخر:

المستعمر – الغرب:

برزت شخصيّة الجندي الإسرائيلي في روايات الكاتبة ناديا خوست من خلال ممارساته الوحشيّة. فالجنديّ في زمن الاحتلال هو وجه الدّولة اليهوديّة وعنوانها. ولا فرق عندهم بين جنديّ ومُجنّدة فالجميع يمثّلون الاحتلال وينفّذون أوامره بأساليب قمعيّة. كالمجازر الّتي ارتكبها الجنود الإسرائيليون في قُرى ومُدن فلسطين بعد احتلالها. منها مجزرة عين الزّيتون الّتي احتلّها البالماخ، ومجزرة قرية الصّفصاف: "جمعوا أهل القرية، انتقوا منهم الشّباب ابتداءً من سنّ الثّانية عشرة من العمر. صفّوهم قرب جدار. تقدّمت جنديّة معها سِتن، ورشّتهم. مشَت قُرب القتلى وتفقّدتهم. رشّت من رأته يتحرّك. ثمّ انتُقيَ من أهل الصّفصاف أولاد دون الثّانية عشرة. قيّدهم اليهود وأوقفوهم وسط الطّريق مرّت مجنزرة فوقهم. تصرخون يا أهل الصّفصاف؟ تنوحون؟! ابكوا موتاكم ثمن قتلانا! ... احبسوهم وامنعوا عنهم الطّعام والماء"(2).

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص608.
(2) المصدر نفسه، ص267.

تباهى الجنود الإسرائيليون بمجازرهم، وبإنجازاتهم، إذ ليس للإنسان العربيّ قيمة عندهم، فهُم يتعاملون مع الشّعوب الأخرى بعنصريّة. برزت شخصيّة الإسرائيلي صاحب الأموال والشّركات.

الإسرائيليّ السّياسي أيضاً. كشخصيّة (وايزمن) الّذي شارك في الفتنة بين العرب والدّولة العثمانية وانفصالهما، وكان له الفضل بمنح اليهود وعد بلفور، عُرِف بين اليهود صهيونيّ له الفضل في قيام الدّولة الصّهيونيّة، وقُدِّم بين الغربيين كرجل غير متديّن. لم يتَساهَلْ حتّى مع اليهود في الوصول إلى طموحاته، أخفى الحقائق واستغلّ النّاس وممّا أقرّه في مذكّراته: "لكن وايزمن كان يكتب في مذكّراته نعرف أنّ أبواب فلسطين مُغلَقة، وأنّ القانون التّركي يمنع تملُّكنا الأرض. لكنّنا نعبر ذلك بالرّشوة والتّزوير... الجهاز التّركي فاسد. وفي ذلك النّظام الفاسد بُنيت المستوطنات الأولى"(1).

ونتبيّن في رواية (أعاصير في بلاد الشّام) مُراوغة الغرب ومكرَه أثناء نشر قوّات الانتداب للحفاظ على السّلام والهُدنة بين اليهود وأهل فلسطين، فكانت قوّات الانتداب من مختلف الجنسيّات الغربية المراوِغَة المنحازة لليهود. ويؤكّد ذلك ما ذكره بهاء الدّين في مذكّراته أثناء نضاله على الجبهة في فلسطين: "زارنا مُراقبوا الهُدنة بلجيكيّ، وأمريكيّ، وفرنسيّ. طمأننا الأمريكي: لنْ يُهاجمكم اليهود! فهمس الفرنسيّ كلّ شيء مُحتمل! فَهِمنَا أنّ الهجوم قريب! أمر القاوقجي بإبعادهم لأنّه شكّ في أنّهم يتجسّسون علينا"(2).

- شخصيّة المرأة:

- الزّوجة والأمّ:

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص551.
(2) خوست، ناديا، أعاصير في بلاد الشّام، ص101.

قبل أن تكون المرأة أمّاً فهي زوجة، وبيتها مملكتها. تتحمّل زوجها بسلبيّاته وإيجابيّاته. لكنّها في روايات الكاتبة (ناديا خوست) تميّزت بتفرّدها وقوّة شخصيّتها وحرّيتها المطلقة، لكنّها حريّة لا تخرج عن إرث الكرامة الّتي ثارت على العادات الشّرقيّة والعُرف السّائد بالطّاعة والتّسليم للرّجل.

تميّزت (فاطمة) زوجة (يوسف) في رواية (حبّ في بلاد الشّام) بجمالها وأناقتها بالرّغم من بساطة لباسها. تربّت يتيمة في بيت خالها إسماعيل. عُنِي بها ودلّلها كجوهرة نفيسة. خرجت من عنده عروساً إلى بيت (يوسف) وهي في الرابعة عشر من عمرها. أدّبت زوجها وثارت على عاداته الشّرقيّة منذ اللّيلة الأولى على الرّغم من صِغرها. هجرته سنتين لتؤدّبه وتغسله من العادات الشّرقيّة البالية كما يغسل المطر الشّجر والحجر. هجرته رغبةً في تأديبه، ولم تهجره لأنّها راغبة في الانتقام منه: "فهل أذهلَ هذا التّمرّد يوسف يوم طرق يوسف الباب فلم تفتح له؟ يومَ لم يتناول مِفتاحه من جيبه لأنّه رجل عائد من المقهى ويجب أن يكون في انتظاره من يفتح الباب له ويُسخّن له العشاء مهما تأخّر؟ وقت حاسبتها لأنّها رفعت رأسها إليه وطارَ النُّعاس من عينيها. ذُهِلَتْ"(1).

شكّلت هذه الحادثة حاجزاً نفسيّاً بينهما. لكنّها عندما تأخّرت بالإنجاب لم تهجره كما فعلت في ليلتها الأولى، ولم تطلب الطّلاق كالنّساء الضّعيفات، بل حزمت أمرها وقرّرت الحفاظ على زوجها الّذي يُحبّها. استقرّا في حيفا، واستعادت قوّتها بأولادها، وبحياتها الّتي نسجتها الزّيارات اليوميّة والعمل والجيران. لم تكن علاقتها بزوجها العلاقات الزّوجيّة الرّوتينيّة. بل هي الّتي ربّته وهذّبت طباعه، وأفهمته أنّه لا يستطيع أن يملكها إلّا بالحبّ والرّضا. علّمته أنّ الزّوجة محبّة ومحبوبة وليست جارية أو عبدة. فكانت تعلو عليه عندما يُخطئ بحقّها بصمتها وترفّعها عن الكلام وتستُّرها على أخطائه: "ولكنّه مع ما وهبته من معرفة

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص665.

الحياة والعمر من التّذوّق في هدوء، بعد أن تعلّم الأكل في تأنٍ، والنّظر إلى الغروب في تأمّل، والاستماع إلى الأصدقاء والأعداء في حكمة وانتباه"(1).

كانت كالسّراب؛ لأنّها لا تغفر ولا تنسى الأخطاء. فتجعل الماضي حفرة بينها وبين النّاس، عدا عن مهارتها بإخفاء مشاعرها المضطربة بملامح وجهها الهادئة. وهبت كلّ حياتها لأبنائها. وحرصت أن يكون مأكلهم من الحلال. وحرصت على تعليمهم المبادئ والقيم وأصول الدّين بالتّرغيب. برز خوفها الوحشيّ على أولادها أيّام الكوليرا، وسجنتهم في الكرم أربعين يوماً خوفاً عليهم: "حبست فاطمة أولادها أيّام الكوليرا في ذلك الكرم، وحجبتهم عن أبيهم الّذي بقي يُتابع أعماله في حيفا، ومنعت أن يأتي شيء من خارج الكرم"(2).

مثّلت فاطمة ذوق وحضارة البلد، جمعت بين حضارة دمشق وفلسطين، واعترف لها بذلك القنصل الإنكليزي اليهودي (أبيلا) "لم أعرف بين العربيّات مثلك"(3).

نجد بالمقابل شخصيّة الزّوجة البسيطة المستكينة ذات التّفكير السّطحي. مثّلت (أم حمدان) في رواية (شهداء وعشّاق في بلاد الشّام) قمّة التّخلّف، فكانت سيئة الأخلاق في تعاملها مع النّاس، ومع زوجة ابنها. اشتهرت بغناها وغرورها. وهي غير متعلّمة رأت أنّ الغنى بالمال. وليس بالعقل والعِلم. عدّت زوج ابنتها غريباً وليس لابنتها الحقّ بإرث أهلها بعد زواجها. وممّا دلّنا على سوء أخلاقها وجهلها نميمتها على النّاس ونقدهم نقداً سطحيّاً: "رأت جارة نحيفة من جارات منوّر فقالت؛ تضع الأساور في يدها! لتضعها في خصرها! أشارت إلى أخرى وقالت: أنفها مثل مزراب السّطح!"(4).

كانت زوجة ابنها بمفهومها كالدّجاجة الّتي تبيض الصّيصان، وأنّ المرأة تحكم بيتها عندما تُنجب الصّبيان وبالمال. لا يهمها الأخلاق والعلم. لم تكتف بقياس الحبّ بالمال.

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص665.
(2) المصدر نفسه، ص538.
(3) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص538.
(4) خوست، ناديا، شهداء وعشّاق في بلاد الشّام، ص154.

بل وأهانت العلم والمتعلّمين بالسبّ والشّتيمة، كقولها لسعاد: "في يدكِ أن تكوني سعيدة أو شقيّة! كنت تريدين متعلّماً مثل أخيك؟ المتعلّمون عندنا يقرؤون في المقابر! تسبُّ هذه المرأة المتعلّمين؟"(1). بلغ الجهل بها أن تعدّ زوجة ابنها (سعاد) حيواناً شرساً يجب أن يروّض بالجوع ليكون أنيساً.

– المُناضلة:

شكّلت المرأة المناضلة أنموذجاً يُحاذي شخصيّة المناضل، وربّما تخطّتها. فشاركت في المظاهرات والاجتماعات، وفي النّضال المسلّح كانت لها بصمتها. برزت في روايات الكاتبة عدّة شخصيّات (هند، شفيقة،) سندرس شخصيّة (سعاد) والّتي جسّدت نضال المرأة الفلسطينيّة. وهي ابنة حيفا درَست وتعلّمت في مدارسها. تزوّجت (حمدان) وظنّت أنّها ستعيش معه الحبّ الّذي تحلم به كلّ فتاة، ولكنّه كان حبّاً محمّلاً بالأشواق والصّراع على الكرامة؛ لينتهي بانفصالهما، وزواج سعاد من المحامي (عبد الرّحيم). هربت من وجع الحبّ لتعيش الوجع والقلق على البلاد. بدأت مسيرتها النّضاليّة معه، بل وتخطّته، فعندما حضرت اجتماع الاتّحاد النّسائيّ: "نظرت إليهنّ معتدّة بأنّها سترسم مسار حياتها إلى جانب عبد الرّحيم، وأحياناً أمامه، ستخطف منه مشروعه كأنّها هي الّتي اختارته قبله"(2).

حضرت النّدوات والاجتماعات، قابلت الزّعماء وقادة الثّورة كالقسّام. لم تخبئ السّلاح فقط، بل شاركت بنقله أيضاً. نقلت الرّسائل من زوجها في المُعتقل إلى الثّوّار ومنهم، فكان عليها أن تبتكر أساليب لإيصال الرّسائل وانتقاء كلماتها بدقّة؛ خشية وقوعها بيد الإنكليز: "في اللّيل طرقَ بابها شرطيّ عربيّ يعمل في المُعتقل أوصل لها رسالة ملفوفة كالسّيجارة

(1) المصدر نفسه، ص214.
(2) خوست، ناديا، شهداء وعشّاق في بلاد الشّام، ص390.

يجب أن تنقلها، ثمّ تضع الجواب في رغيف الخبز من كومة أرغفة الخبز رغيفاً مناسباً وستدفع الجواب بطرف السّكّين الدّقيق"(1).

ركضت (سعاد) من مُعتقل لمُعتقل مُتحمّلة جلافة الإنكليز لتزور عبد الرّحيم، وقد ترجع بطناجر الطّعام، وأحياناً لا تتمكّن من رؤيته. ذكّرها شقاؤها ونساء عكّا بأسطورة شهريار الّذي قتل النّساء لاكتشافه خيانة زوجته، ودفنهنّ في سور عكّا.

حمت (سعاد) رجال الثّورة وأوصلتهم لمناطق آمنة كالنّعيمي. وساعدت بكشف سماسرة اليهود كأبي صبحي. وشاركت بنقل السّلاح للثّوار مُصطحبةً ابنها زياد معها مُعرِّضةً حياته للخطر. كانت في كلّ مهمّة وفي كلّ مكان تمرّ فيها عُرضة للقتل. انشغلت سعاد بمعاركها وجولاتها النّضاليّة ونسيت أنّها تزوّجت لتكوّن أسرة تستقوي بها، فكان قضاء ليلة حميمة مع زوجها يُعتبر انتصاراً لهما على الغُربة والمُعتقل، وتعترف لنفسها أنّ: "الحبّ العميق الّذي يملؤها هو حبّ بلدها، ردّدت وهي تمسح ندى عينيها: نعم أكثر من الولد ومن الزّوج!"(2).

حزنت سعاد بعد هجرتها إلى دمشق، وإخماد الثّورة دون تحقيقها لأهدافها. ولكنّها ستُعزّي نفسها: "بأنّهم غرسوا بذور الثّورة الّتي ستنبت أجيال المناضلين"(3). سيكون ابنها (زياد) إحدى هذه البذور. ستُربّي فيه الشّوق لفلسطين ليستشهد على بوّابتها. ومن الشّخصيّات المناضلة (شفيقة، هند، زوجة فائز، ...).

- المتمرّدة:

طابقت شخصيّة (نفيسة) بهيئتها وصفاتها اسمها، فكانت كالدّرّة النّفيسة بتكوينها وشجاعتها واعتداداها بنفسها. ولدت في دمشق (سوق ساروجا) تميّزت بجمالها وملامحها

(1) خوست، ناديا، وداع ولقاء في بلاد الشّام، ص421.
(2) المصدر نفسه، ص447.
(3) المصدر نفسه، ص447.

الّتي أوحت بالقوّة والشّباب والنّضارة بالرّغم من التقدّم بالعمر. ونلمح إعجاب خالد آغا بنضارتها من خلال قول الرّاوي في رواية (شهداء وعشّاق): "رآها ترفع رأسها إلى القمر فَينهمر على وجهها. أيمكن أن تبقى امرأة نضِرة وجميلة وشابّة هكذا؟ يهبُ الطّيش جمالاً للشّباب؟ ليتهم يرون جمال النّضج وشباب الرّوح الّذي يراه الآن"(1). عبَرَت نفيسة العتبة خارج قدر النّساء منذ واجهت أباها وهي طفلة. وقفت أمامه وأعلنت له أنّها تريد أن تتعلّم كأخيها يوسف، وعندما رفع يده ليؤدّبها بالضّرب هربت واختبأت في ضريح الوليّ، وعندما سألها مازحاً إن كانت استأذنت الوليّ قبل النّوم قربه أجابته: "أنت حكيت لي أنّه أنقذ الأطفال الّذين كاد يُحرقهم غزاة البلد! يا للدّرس يا نفيسة! درسٌ لأبٍ ميّز بين فتاة مثلك وبين أخيها!"(2).

كانت هذه الخطوة بداية درب التّمرّد الّذي سارت عليه نفيسة وكأنّها استمدّت القوّة من الوليّ الرّاقد في منزلها، فجاورت بقربه الحياة والموت، كما ستجاور في حياتها الممكن والمستحيل بمحاربتها للعادات وخوضها ميادين كانت حِكراً على الرّجال.

استأثرت بعد هذه الحادثة باهتمام والدها وعنايته، وفضّلها على أخيها الّذي تفوّقت عليه في الحساب والتّجارة. علّمها كلّ ما تعلّمه في الحياة وكشف ما له من ديون على النّاس وما عليه، وكيف يتعامل مع التّجار. امتلكت من الشّجاعة والصّلابة ما يفوق شجاعة الرّجال، لحظة وفاة والدها خبّأت أكمار الذّهب قبل أن تُعلن موته، خبّأتها حرصاً عليها من تبذير أخاها الّذي يكبرها بسنتين. تمرّدت نفيسة حتّى بفرحها. لم يكن فرحها كفرح النّساء بالزّوج والأولاد والنّزهات في البساتين: "تعرف نفيسة الفرح... فرحها الآن لا تحتويه البيوت، يغمر بيتها الكبير ويمتدّ حتّى الجبال تشعر به في إيقاع الفرس، تشعر به وهي

(1) خوست، ناديا، شهداء وعشّاق في بلاد الشّام، ص80.
(2) المصدر نفسه، ص128.

ترى نفسها في عيون الرّجال الّذين يهابونها وتلمح الرّغبة المكبوتة في عيونهم، يخافون أن يُعلنوها أمامها ويخشون أن تعرفها"(1).

كانت الحريّة بمفهومها هي اختراق الحدود بين الرّجال والنّساء، واختراق الأعمال المحرّمة على النّساء بعُرف العادات والتّقاليد. عملت بتجارة الحرير. فرضت احترامها على التّجّار والفلّاحين معاً. تفوّقت على الرّجال بمهارتها، سمّوها أخت الرّجال، وسمّتها الفلّاحات أم حصان.

تأخّرت بالإنجاب في زواجها الأوّل، فتزّوج بالسّرّ الفلّاحة الّتي تخدمها، فأجبرته نفيسة خانم أن يُطلّقها؛ لأنّ مثلها لا يقبل الضّرّة. فكان حكمها: "يُعجب الرّجال من يدلّلهم ويُطيعهم ويتحاشون المرأة الّتي تظهر أنّها مثلهم، إنسان عاقل!"(2).

بدا زوجها الثّاني (ابن الكحّال) أنّه هو الّذي يرجو امرأة مطلّقة أن تقبله. بعد زواجهما بقيت سيّدة البيت أنجبت طفلتين ومات الصّبيّ، وبموته بدأ الشّرخ بعلاقتهما. انفصلا لأنّ زوجها لم يحتمل تفوّق زوجته عليه واعتمادها على نفسها، ونشأت بينهما بعد الطّلاق صداقة أعمق من الزّواج الّذي جمعهما لفترة. لم يأتمنها والدها على أملاكه وتجارته فقط، بل على المدن والبلاد وتاريخها وحضارتها وأوصاها بالحفاظ على تراث الأقدمين. التزمت بوصيّته بحفاظها على الفانوسين والمشرقة والبركة. كما حملت الأمانة والتزمت بوصيّة والدها في الدّفاع عن البلاد. ساهمت بنقل السّلاح للثّوار، وحمايتهم في بيتها.

آوت الأرامل والأطفال في بيتها أثناء القصف الفرنسي. تابعت أخبار الثّورة وتآمر الغرب واليهود على بلاد الشّام كرجل سياسة مُثقل بالهمِّ الوطنيّ: "يمتهن الفرنسيّون الموتى كي يُخيفوا مدينة! يُخيفونها؟ أيّة جرأة الآن في نفيسة! لو طلب الثّوّار عينيها لقدمتهما

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص134.
(2) المصدر نفسه، ص123.

لهم!"(1). كان نصيبها من الحزن ما تعجز المرأة العاديّة عن تحمّله فقدت أخاها وأولاده والرّجل الوحيد الّذي أحبّته وبالرّغم من ذلك صمدت كدمشق الّتي تعاقب عليها الغزاة وكأنّها استمدّت القوّة والصّلابة من مدينتها.

نجد أنّ أغلب الشخصيّات النّسائية هي شخصيّات مثقّفة متنورة، وسيدة نفسها وبيتها. لم تكن شخصيّات ضعيفة ومضطهدة كما يُصورها أغلب الأدباء والكتّاب. وشخصيّات الرّجال أغلبها مُثقفة، ومثقلة بالهمّ الوطنيّ، والدّفاع عن حريّة الوطن وهويته وقداسته. ويغلب على هذه الشخصيّات أنّها (مدوّرة) ويسميّها بعض النقّاد (المكثّفة، النّامية) وهي شخصيّات لا تستقرّ على حال ولا يستطيع القارئ أن يعرف مُسبَقاً ما سيؤول إليه مصير هذا النّموذج من الشخصيّات؛ لأنّها تنمو وتتطوّر، وتتكشّف للقارئ تدريجيّاً. وممّا يّميز سلوك هذه الشخصيّات هو عنصر المفاجأة في سلوك هذه الشخصيّات. كشخصيّة (نوري، سعيد، سعاد، نفيسة). انمازت هذه الشخصيّات بتطورها مع تصاعد الأحداث. درس (نوري) في دمشق، وحضر الندوات والمؤتمرات الثّقافية، ورافق شخصيات سياسيّة، سارت حياته على هذا النّمط إلى أن حضر إعدام الشهداء في ساحة المرجة، ليغيّر هذا الحدث مسيرة حياته وينعكف عائداً إلى مدينته تاركاً الدّراسة والسياسة لأخيه ويقصُر حياته على العمل في الأرض، ومعاشرة الفقراء والفلاحين بدلاً من رجال السياسة. فكان حدث الإعدام نقطة تحوّل في حياة نوري، وفاجأ موقفه السلبي وتغيير نمط حياته وهيأته الخارجيّة باستبداله البدلة والطربوش بلباس الفلاحين القارئ. وفاجأت شخصيّة (سعاد) القارئ بمواقفها السياسية والنّضالية. أوّل حدث غيّر نمط حياتها هو طلاقها من حمدان الّذي أحبّته وحلُمت بحياة مثالية معه لكنّ حبّه المضطرب دفعها للطّلاق منه والزّواج من المحامي (عبد الرّحيم) لتكوّن أسرة مثاليّة بعيداً عن وجع الحبّ. بدأت معه مسيرتها

(1) خوست، ناديا، شهداء وعشّاق في بلاد الشّام، ص408.

النّضاليّة، وفاجأت القارئ بنضالها على مستوى الأسرة والوطن، وبحكمتها ورجاحة عقلها عندما كان زوجها عبد الرّحيم يستشيرها في قضاياه، والقضايا السياسية.

– المرأة الأجنبيّة (اليهوديّة – الغربيّة):

برزت شخصيّة (مس نيوتن) الإنكليزية في رواية (حبّ في بلاد الشّام) كمبشّرة إنكليزيّة. ادّعت أنّها تحبّ فلسطين، وأنّها مُهتمّة بتاريخها. تنقّلت بين مدن فلسطين وبلاد الشّام وهي مسلّحة بالكتب والخرائط. استغلّت حاجة الفقراء لنشر الدّين المسيحي، وتجندهم لصالح بلادها، ثُمّ افتتحت المدارس لتجمع الأولاد. لم تُهمل علاقتها الحسنة بالأغنياء؛ لتخفي نواياها وتُبعد الشّكوك عنها. كانت في معركة سرّيّة مع الألمان، تؤسّس موقعاً للإنكليز أمام الألمان في فلسطين: "لكن يوسف لن يعرف المستقبل، أنّها ستصوّر سرّاً الخط الحديدي في بيت ميزنر باشا، الّتي سيستند إليها لورنس لنسف جسور ومحطّات الخط الحديديّ، وأنّ اللّنبي سيزورها في بيتها عندما يدخل الجيش العربيّ والإنكليزي إلى فلسطين، وأنّها ستهرّب الشّيخ أمين الحسيني فيما بعد إلى بيروت"(1). كانت شخصيّة مضطربة بالرّغم ممّا أظهرته من قوّة وثقة بالنّفس، خافت افتضاح أمرها لذا كانت تحمل المسدس تحت ثيابها دائماً.

تفنّنت (حنّة) اليهوديّة في جذب الرّجال ضعاف النّفوس ومن تتحكّم بهم شهوتهم على حساب وطنيّتهم ومصلحة بلدهم. ابتكر (صالح الحكيم) ما لم يبتكره عربيّ في اللّهو معها، مُجاهراً بلهوهِ ومزهوّاً بغناه، ودون أن يدري خدم اليهود وساعدهم بماله. وبالمقابل نجحت (حنّة) اليهوديّة بمهمّتها بسلبه ماله وصَرْفه عن قضيّة وطنه بقول الرّاوي في رواية (حبّ في بلاد الشّام): "يُقال عمّرت حنّة كنيساً من أموال صالح الحكيم. يُقال بنى صالح الحكيم دون أن يدري، كنيساً لليهود!"(2).

(1) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص573.
(2) خوست، ناديا، حبّ في بلاد الشّام، ص500.

خاتمة:

وهكذا نجد أنّ الكاتبة اختارت شخصيّاتها بعناية فائقة. واختارت ما يُناسبها من أسماء ووظائف. فكان لها دور كبير في تحريك العمل السّردي، فكلّ شخصيّة أدّت دورها على أكمل وجه والسّمة البارزة في هذه الشّخصيّات الطّابع الاجتماعي الحقيقي. فكانت كلّ شخصيّة حاملة لأفكار معيّنة كلّ حسب ثقافته، ممّا يدلّ على تفاوت نسبيّ لدى كلّ شخصيّة على مستوى التّفكير وطبيعة السّلوك.

فانقسمت الشّخصيّات مناضلين، وسياسيين، وعملاء، أمّا الشّخصيّات الثّانوية فتميّزت بالجمال والاعتداد بالكرامة وعزّة النّفس، والتّمرّد على العادات الشّرقيّة برفضها الطّاعة والتّسليم للرّجل، ورفضها أن تكون مستكينة تابعة له.

نتائج البحث:

– اختارت الكاتبة شخصيّاتها بدقّة، فكان معظمهم من الطبقة البرجوازيّة، لأنّهم امتلكوا في تلك المراحل التّاريخيّة مقومات متعدّدة جعلتهم قادرين على التّفاعل مع الأحداث؛ نظراً لطبيعة الأحداث الّتي كانت سائدة في تلك الأزمنة وارتبطت الشخصيّات جذريّاً بالتّاريخ السياسي لبلاد الشّام بوصفه تاريخاً يتّصل بشكل مباشر بالمطامع (اليهوديّة – الصّهيونيّة) بفلسطين.

– تنوّعت شخوص الرّاوية من شخوص تاريخيّة ومجازيّة وواصلة. شاركت الشخصيّات الثّانويّة في تطوّر الأحداث وإبراز مواقفها إزاء الأحداث الّتي عاشتها البلاد.

– حرصت الكاتبة على خلق شخصيّات متنوّعة في الفكر والطّموح، فكانت هذه الشّخصيّات تنبض بحبّ الوطن، واتّسمت أغلبها بالإيجابيّة (كالنّزعة النّضاليّة. ونشدان (الحريّة). فكانت ثريّة في إنتاج دلالاتٍ إنسانيّةٍ رحبة.

– مزجت الكاتبة في رواياتها بين الحبّ والنّضال؛ الحبّ من أجل الوطن والعيش بسلام، وقصص الحبّ بالرّغم من الظّروف التّاريخيّة والسّياسيّة الّتي عاشتها الشّخصيّات.

– رصدت الكاتبة واقع المرأة الفلسطينيّة ونضالها وتمسُّكها بأرضها من خلال عدّة شخصيّات كشخصيّة سعاد.

– برزت في الرّوايات شخصيّات نموذجيّة جعلها الرّاوي تنهض بالأحداث، وتُشارك في سيرها، محدّداً وظيفة لكلّ منها، وأهم ما يميّزها أنّها شخصيّات مثقّفة وإيجابيّة.

– جسّدت الشخصيّات شخصيّة الإنسان العربي بصدق وواقعيّة اجتماعيّاً وسيّاسيّاً وثقافيّاً. أبدعت الكاتبة في رسم الشخصيّات بما يُقابلها من شخصيّة الآخر.

– لم تبرز المرأة كأنموذج للمرأة العربيّة المضطهدة كما يُصوّرها أغلب الأدباء والكتّاب، بل برزت كشخصيّة مكافِئة للرّجل، وسيّدة نفسها وبيتها.

قائمة المصادر والمراجع:

- المصادر:

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم،1994م، لسان العرب (مادّة شخص)، دار الكتب العلّميّة بيروت – لبنان، ط5.

- خوست، ناديا،1995م، حبّ في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

- خوست، ناديا، 2002م، شهداء وعشّاق في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

- خوست، ناديا، 2005م، دماء وأحلام في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

- خوست، ناديا، 1998م، أعاصير في بلاد الشّام، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق.

المراجع:

– إسماعيل، عزّ الدّين، 1975م، الشّعر العربيّ المعاصر (قضاياه وظواهره الفنّيّة)، دار الثّقافة بيروت، ط3.

– أرسلان، إسماعيل، الرّمزيّة في الأدب والفنّ، مكتبة القاهرة الحديثة القاهرة، (دت).

– بحراوي، حسن، 2009م، بنية الشّكل الرّوائي (الفضاء الزّمن الشّخصيّة)، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء – المغرب، ط2.

– بير، هنري، 1981م، الأدب الرّمزي، تر: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت.

– الحمداني، حميد، 2000م، البنيّة السّرديّة من منظور النّقد العربيّ، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء – المغرب، (دط).

– رياض، سعد، 2005م، الشخصيّة أنواعها أمراضها وفنّ التّعامل معها، مؤسّسة اقرأ، القاهرة – مصر، ط1.

– زغرب، صبيحة عودة، 2006م، جماليّات السّرد في الخطاب الرّوائي، دار مجدلاوي للنّشر والتّوزيع، عمّان – لبنان.

– زكريّا، عبد المنعم، 2008م، البنى السّرديّة في الرّواية، النّاشر عن بحوث إنسانيّة واجتماعيّة، ط1.

– أبو شريفة، عبد القادر، 2008م، مدخل إلى تحليل النّصّ الأدبيّ، دار الفكر العربيّ، ط4.

– العيد، يمنى، 1990م، تقنيّات السّرد الرّوائي في ضوء المنهج البنيويّ، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط1.

– غطّاس، أنطوان كرم، 1949م، الرّمزيّة والأدب العربيّ الحديث، دار الكشّاف للنّشر والطّباعة، بيروت – لبنان.

– ابن كثير، إسماعيل بن عمر، 2009م، البداية والنّهاية، بيت الأفكار الدّوليّة.

– مرتاض، عبد الملك، في نظريّة الرّواية (بحث في تقنيّات السّرد)، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (دط).

– الميلادي، عبد المنعم، 2009م، الشّخصيّة وسماتها، مؤسّسة شباب الجامعة، مصر، (دط).

– هامون، فيليب، 2008م، سيمولوجيا الشّخصيّات الرّوائيّة، تر: سعيد بنكراد، دار الحوار للنّشر، اللّاذقيّة – سوريّة، ط1.

– هلال، محمّد غنيمي، 1987م، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت – لبنان.

– هويدي، صالح، 1989م، التّرميز في الفنّ القصصيّ العراقي الحديث، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد – العراق، ط1.

– ويلك، رينيه، وأوستن وارين، 1972م، نظريّة الأدب، تر: محي الدّين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، دمشق.

References/sources:

- **Ibn Manzoor Abu Alfadl Jamal Al Deen Muhammad bin Mukarram , *Lesan Al Arab*, (Person material) Dar Alkutob ,Scientific Books , Beirut - Lebanon ,T5 , 1994.**
- **Khost, Nadia, *Love in Al Sham Countries*, Published by the Union of Arab Writers, Damascus, 1995.**
- **Khost, Nadia, *Martyrs and Lovers in al Sham Countries*, Published by the Union of Arab Writers, Damascus, 2000.**
- **Khost, Nadia, *Leaving and Meeting in Al Sham Countries*, Published by the Union of Arab Writers, Damascus, 2002.**
- **Khost, Nadia, *Bloods and Dreams in Al Sham Countries*, Published by the Union of Arab Writers, Damascus, 2005.**
- **Khost, Nadia, *Hurricanes in Al Sham Countries*, Published by the Union of Arab Writers, Damascus, 1998.**
- **Ishmael Izzedeen, *The Arab Contemporary Poetry (its cases and artistic causes)*, Dar Al Thakafa, Beirut, T3, 1975.**
- **Arslan, Ishmael, *Symbolism in Literature and Art*, Maktabt AL Kahera Al Hadithah, Cairo, (D.T).**
- **Bahrawi Hasan, *The Structure of the Narrative Shape (space-time-character) Arabic cultural Center* Al Dar Albaida, Morocco T2, 2009.**
- **Pier,Henry, *The Symbolic Literature*, translated by Henry Zgeeb, published by Ouaidat, Beirut, 1917.**
- **Al Hamadani, Hameed, The Narrative Structure , *The Base for the Arab Criticism, The Arab Cultural Center*, Al Dar Albaida, Morocco, (DT), 2000.**
- **Ryad, Sa'ad, *The Character, its Kinds, its Diseases and How to Deal with it*. The Institute : READ. Cairo - Egypt , T1, 2005.**

- **Zagrib, Sabiha, Oudah, *The Aesthetics of the Narration in Orating Novels*, Dar Majdalawi for Publishing and Distribution , Amman - Jordan, 2006.**
- **Zakaria Abd Al Munem, *The Narrative Structure in the Novel*, Published by Social and Humanitarian Researches, T1, 2008.**
- **Abu Sharia, Abd Al Kader, *An Entrance to Analyzing the Literary Text*, T4, 2008.**
- **Abbas, Ehsan, *The Art of Poetry*, Dar Sader, Beirut, 1996.**
- **Al Eid, Yumna, *The Techniques of the Narration of the Novel According to the Criteria of the Novel Structure*, Dar Al Farabi. Beirut - Lebanon, T2, 1990.**
- **Gaddas, Antoine Karam, *The Symbolism in the Arabic Literature*, Beirut, 1949.**
- **Ibn Katheer, Ishmael bin Omar, *The Beginning and the End*, The House of the World Thoughts , 2009.**
- **Murtad, Abd Al Malek, *The Theory of the Novel, (Researches in Techniques of Narration) The World of the Novel*, The Ministry of Culture and National Guidance, Kuwait, 1998.**